

أدونيس

كتاب التحولات والهجرة
في أقاليم النهار والليل

(صياغة نهائية)

دار الأداب - بيروت

**كتاب التحولات والهجرة
في أقاليم النهار والليل**

جميع الحقوق محفوظة

طبعة جديدة

١٩٨٨

زهرة الكيمياء

«كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»

«وقال لي اقعد في ثقب الابرة ولا تبرح، وإذا
دخل الخيط في الابرة فلا تمسكه، وإذا خرج فلا
تمده، وافرح فإني لا أحب إلا الفرحان».

الثَّقْرِي

زهرة الكيمياء

ينبغي أن أسافر في جنة الرماد
بين أشجارها الخفية
في الرماد الأساطير والماس والجزء الذهبية.
ينبغي أن أسافر في الجوع ، في الورد ، نحو الحصا
ينبغي أن أسافر ، أن أستريح
تحت قوس الشفاء اليتيم ،
في الشفاء اليتيم في ظلها الجريح
زهرة الكيمياء القديمة .

الدّهشة الأسيرة

ذاهبٌ أتقىً بين البراعم والعشبِ، أبني جزيرةً
أصلُ الغصنِ بالشُّطوطِ
وإذا ضاعتِ المرافىءُ واسودّتِ الخطوطُ
ألسُ الدّهشةِ الأسيرةِ
في جناحِ الفراشةِ
خلفَ حصنِ السَّنابلِ والضوءِ في موطنِ الهَشاشةِ.

شجرة النهار والليل

قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ النَّهَارُ، أَجِيءُ
قَبْلَ أَنْ يَتَسَاءَلَ عَنْ شَمْسِيهِ، أَضِيءُ
وَتَجِيءُ الْأَشْجَارُ رَاكِضَةً خَلْفِي، وَتَمْشِي فِي ظِلِّي الْأَكْمَامُ
ثُمَّ تَبْنِي فِي وَجْهِ الْأَوْهَامُ
جُزُرًا وَقِلَاعًا مِنَ الصَّمْتِ يَجْهَلُ أَبْوَابَهَا الْكَلَامُ
وَيُضِيءُ اللَّيْلُ الصَّدِيقُ، وَتَنْسَى
نَفْسَهَا فِي فِرَاشِي الْأَيَّامُ
ثُمَّ، إِذْ تَسْقُطُ الْيُنَابِيعُ فِي صَدْرِي،
وَتُرْخِي أَرْزَارَهَا وَتَنَامُ
أَوْقِظُ الْمَاءَ وَالْمَرَايَا، وَأَجْلُو
مِثْلَهَا، صَفْحَةَ الرَّؤْيَى، وَأَنَامُ.

كنيسة النهار

صارت لي الكؤوسُ والأكمامُ
وسادةً
حُلماً على الوسادة،

من زمنِ الولادة
في غابةِ الرضاعِ والفِطامِ
أنقلُ أجراسي في الليلِ إلى كنيسةِ النهارِ
ألنسخُ قُداسي بينَ الطَّلَعِ والثَّمارِ
والورقِ العِمادةِ.

شجرة الشرق

صيرتُ أنا المرأةُ :
عكستُ كلَّ شيءٍ
غَيَّرْتُ في ناركُ طقسَ الماءِ والنباتِ
غَيَّرْتُ شكْلَ الصَّوتِ والتَّداءِ

صرتُ أراكُ اثنينُ :
أنتَ وهذا اللُّؤلؤُ السَّابِحُ في عيني
صرتُ أنا والماءِ عاشقينُ :
أُولِدُ باسمِ الماءِ
يُولَدُ فيَّ الماءُ
صيرتُ أنا والماءِ توأمينُ .

الإشارة

مَزَجْتُ بَيْنَ النَّارِ وَالتَّلُوجِ -
لن تفهمَ النَّيرانُ غاباتي ولا التَّلُوجُ
وسوفَ أبقى غامضاً أليفاً
أَسْكُنُ فِي الأزهارِ والحجاره
أغيبُ
أستقصي .
أرى
أُوجُ
كالضوءِ بين السَّحَرِ والإشارة .

شجرة الحنايا

في حقول الكآبة، في العشب أرسمُ أيامي الحجريّة
كاسراً صفحة المرايا
بين شمس الظهيرة والماء في البركة الأدمية .
سنواتي تُهاجرُ كالجوع تنهارُ في غابة الحنايا
سنواتٌ . . .
رأيتُ مناقيرها تتشابكُ، تنهارُ في غابة الحنايا
بين أعشاشها الأبدية .

شجرة النار

عائلةٌ من ورق الأشجار
تجلسُ قربُ النَّبْعِ
تجرحُ أرضَ الدَّمْعِ
تقرأُ للماءِ كتابَ النَّارِ
عائلتي لم تنتظر مجيئي
راحتُ
فلا نارُ ولا آثارُ.

شجرة الصباح

لاِقِنِي يَا صَبَاحُ إِلَى حَقْلِنَا الْيَائِسِ
فِي الطَّرِيقِ إِلَى حَقْلِنَا الْيَائِسِ
شَجَرٌ يَابِسٌ كَمْ وَعَدْنَا
أَنْ نَظَلَ سَرِيرَيْنِ ، طِفْلَيْنِ ، فِي ظِلِّهِ الْيَابِسِ

لاِقِنِي ، هَلْ رَأَيْتِ العُصُونَ سَمِعَتْ نَدَاءَ العُصُونَ
تَرَكَتْ نَسْعَهَا كَلَامًا

كَلِمَاتٌ تَشُدُّ العَيُونَ
كَلِمَاتٌ تَشَقُّ الحِجَارَةَ

لاِقِنِي ، لاِقِنِي . . .
كَأَنَّا التَّقِينَا ، وَنَسَجْنَا الظَّلَامَا

ولبسنا - وجئنا - قرعنا على بابه ، رفعنا الستاره
وفتحنا شبابيكه وانزويننا
في حنايا الجدوع
واستعشنا بأجفاننا وسكبننا
دورق الحلم والدموع
وكأنا بقينا
في بلاد الغصون ، أضعنا طريق الرجوع .

غابة السحر

ليكن،
جاءت العصافير وانضمَّ لفيف الأحجار للأحجارِ
ليكن،
أوقظ الشوارعَ والليلَ
ونمضي في موكب الأشجارِ
ألفصون الحقائق الخضر والحلمُ وسادُ
في عطلة الأسفار
حيث يبقى الضحى غريباً ويبقى
وجهه خاتماً على أسراري.

ليكن،
دلني شعاع وناداني صوتُ
من آخر الأسوار. . .

شجرة الأهداب

.
وحيثما استسلمت في جزيرة الجفون
ضيفاً على الأصداف والجرار،
رأيت أن الدهر قارورة
تجمع بين الماء والشرار
وتمنح الإنسان أن يكون
أسطورةً أو نارَ أسطورة،
وكنتُ محمولاً على الغصون
في غابة بيضاء مسحوره
نهارها المندور للجنون
مديتي، والليل مقصورة.

شجرة الكآبة

وَرَقٌ يَتَقَلَّمُ يَرْتَاخُ فِي حُفْرَةِ الْكِتَابَةِ
حَامِلاً زَهْرَةَ الْكَآبَةِ
قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ الْكَلَامُ
صَدًّا
يَتَنَاسَلُ فِي قَشْرِهِ الظَّلَامُ

وَرَقٌ سَائِحٌ يَتَقَدَّمُ يَرْتَادُ أَرْضَ الْغُرَابَةِ
غَابَةً بَعْدَ غَابَةٍ
حَامِلاً زَهْرَةَ الْكَآبَةِ . . .

أقاليم البراعم

مرَّ هنا إيكارُ
خيمَ تحتَ الورقِ الشَّاحِبِ شمَّ النَّارَ
في عُرفِ الخُضرةِ في البراعمِ الوديعه
وهَزَّ،
هَزَّ الجذعَ، واستجارَ
والْتَفَّ كالوشيعه
ثمَّ انشَى وطارَ . . .

لم يحترقَ - لَمَّا يُعَدُّ إيكارُ.

(١٩٦٣)

الصقر

«وأقبلت الخيل فصاحوا علينا من الشط: ارجعوا لا بأس عليكم، فسبحت، وسبح الغلام أخي، فالتفت إليه لأقوي من قلبه، فلم يسمعني واغتر بأمانهم وخشي الفرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ومضوا برأسه، وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومضيت إلى وجهي: أحسب أنني طائر وأنا ساعٍ على قدمي».

عبد الرحمن الداخل

(صقر قريش)

١ - أيام الصقر

هدأت فوق وجهي بين الفريسة والفارس الرماحُ
جسدي يتدحرجُ والموت حوذية والرياحُ
جثثُ تتدلى ومرثية، -
وكأنَّ النهارُ
حجرٌ يثقبُ الحياةَ
وكأنَّ النهارُ
عرباتُ من الدمعِ ،

غَيْرَ رنينِكَ يا صوتُ ،
أسمعُ صوتَ الفراتِ :

- « قُرَيْشٌ . . .
قافلةٌ تُبحرُ صوبَ الهندِ
تحملُ نارَ المجدِ . »

... والسَّماءُ على الجُرحِ مَمْدُودَةٌ، والضَّفَافُ

تتَهَامَسُ، تَمْتَدُّ:

بيني وبين الضَّفَافِ

لُغَةٌ، بيننا حِوَارُ

حَضَّتَهُ الكَرَاكِيُّ، طَافَتْ بِهِ كَالشَّرَاعِ

بيننا، -

(وأفرائاهُ، كَنَ لِي جِسْرًا، وَكَنَ لِي قِنَاعُ)

وَتَرَسَّبْتُ،

غَيْرَ رَيْنِكَ يَا صَوْتُ، أَسْمَعُ صَوْتَ الْفِرَاتِ:

- «فَرِيشٌ...»

لُؤْلُؤَةٌ تَشَعُّ مِنْ دِمَشْقَ

يُخْبِئُهَا الصَّنَدَلُ وَاللَّبَّانُ

أَرَقُّ مَا رَقَّ لَهُ لَبَّانُ

أَجْمَلُ مَا حَدَّثَ عَنْهُ الشَّرْقُ...»

... وَأَنَا فِي فِضَاءِ الْجِنَادِبِ تَحْتَ الْغَيْومِ الْجَرِيحَةِ

حَجَرٌ مَيَّتُ الْجَنَاحِ

حَجَرٌ مَيَّتُ الْقَوَادِمِ ،
وَالْمَوْتُ يُسْرَجُ أَفْرَاسَهُ ،
وَالذَّبِيحَةُ
بَجَعٌ يَتَخَبَّطُ ،

غَيْرَ ذَوِيكَ يَا صَوْتُ
أَسْمَعُ صَوْتَ الْفِرَاتِ :

- « قُرَيْشٌ . . . »

لَمْ يَبْقَ مِنْ قُرَيْشٍ
غَيْرَ الدَّمِ النَّافِرِ مِثْلَ الرَّمْحِ
لَمْ يَبْقَ غَيْرَ الْجُرْحِ »

اِفْتَحِي يَا بَرَارِي مَصَارِيعَ أَبْوَابِكَ الصَّدَائِثِ :
مَلِكٌ وَالْفِضَاءُ خِرَاجِي وَمَمْلَكَتِي خُطَوَاتِي
مَلِكٌ أَتَقَدَّمَ أَبْنِي فُتُوْحِي
فَوْقَ هَذَا الْجَلِيدِ الْمُؤَصَّلِ ، فَوْقَ الْجَمُوحِ

أعرفُ أن أجرح الرَّمْلَ، أزرع في جرحِهِ النُّخَيْلا
أعرفُ أن أبعثَ الفضاءَ القَتَيْلا،
والطَّرِيقُ يُدَحْرَجُ أهواله ويضيقُ
والطَّرِيقُ مرايا
كتبُ ومرايا
أتقرى تجاويها
أتفرسُ
المسُ فيها بقايا
فارسٍ عاشقِ الخُطى
أقرأ الخطوةَ والعشبَ والنخيلَ، وأفقاً
نسجته التَّنْهَدَاتُ القصيره
حيث لا يهدأ الحريقُ
حيث لا تنتهي الخطوات الأُميره .

في الشَّقوقِ نَفَيَاتُ
كنتُ أجسُّ الدَّقَائِقَ
أمخضُ نَدَى القِفَارِ
سرتُ أمضى من السَّهْمِ أمضى
عقرتُ الحصَى والغُبَارَ

كانت الأرضُ أضيّقَ من ظلِّ رَمَحِي - مُتُّ
سمعتُ العقاربَ كيفَ تصبىءُ، هديتُ القَطَا في المِجَاهِلِ -
مُتُّ، انْحَنَيْتُ على الأرضِ أَكْثَرَ صَبْرًا من الأرضِ - مُتُّ
انْكَبَيْتُ على كاهلِ الرِّيحِ
صَلَيْتُ

وَشَوَّشْتُ حَتَّى الحِجَارِ
وَقَرَأْتُ النُّجُومَ، كَتَبْتُ عَنَاوِينَهَا وَمَحَوْتُ
رَاسِمًا شَهْوَتِي خَرِيطَةً
وَدَمِي جَبْرًا وَأَعْمَاقِي البَسِيطَةَ.

سَاهَرُ بَيْنَ جَذْرِي وَأَغْصَانِهِ وَالْمِيَاهِ
نَضَبْتُ،
وَالْتَوَابِعُ مَمْلُوءَةُ الجِبَاهِ
زَهْرًا يَابِسًا وَقُبُورًا وَدِيْعَةً،
صَاعِدُ لِبُرُوجِ التَّحَوُّلِ حَيْثُ الفَجِيعَةُ
حَيْثُ يَسْأَقُطُ الرَّمَادُ
حَيْثُ يَسْتَقِظُ النُّشَيْجُ وَيَنْطَفِئُ السَّنْدُبَادُ.

لو أنني أعرفُ كالشاعر أن أغيرَ الفصول
لو أنني أعرف أن أكلّمَ الأشياءَ،
سحرت قبر الفارسِ الطّفل على الفراتِ
قبر أخي في شاطيء الفرات
(مات بلا غسلٍ ولا قَبْرٍ ولا صلاةٍ)
وقلتُ للأشياءِ والفُصولِ
تواصلي كهذهِ الأجواءِ
مُدّي لي الفراتُ
خَلِيهِ ماء دافقاً أخضرَ كالزّيْتونِ
في دمي العاشقِ في تاريخي المسنونِ .

لو أنني أعرف كالشاعر أن أشاركَ التّباتِ
أعراسه،
فَنَعْتُ هذا الشجرَ العاريَ بالأطفالِ،
لو أنني أعرفُ كالشاعر أن أدجنَ الغرابه
سوّيتُ كلَّ حَجَرٍ سحابةً
تُمطرُ فوق الشّامِ والفراتِ،
لو أنني أعرفُ كالشاعر أن أغيرَ الأجالِ

لو أَنَّنِي أَعْرَفُ أَنْ أَكُونُ
نُبُوءَةً تَنْذِرُ أَوْ عِلَامَةً،
لَصِيحْتُ يَا غِمَامَةَ
تَكَانَفِي وَأَمْطِرِي
بِاسْمِي فَوْقَ الشَّامِ وَالْفِرَاتِ
بِاللَّهِ يَا غِمَامَةَ . . .

السَّمَاءُ انْفَتَحَتْ،
صَارَ التَّرَابُ
كُتُبًا، وَاللَّهُ فِي كُلِّ كِتَابٍ
سَاهِرٌ
لَمْ يَبْقَ فِي وَجْهِي صَخْرٌ نَائِمٌ، لَمْ يَبْقَ فِي عَيْنِي سَرَابٌ، -
عِلَامَةٌ تَأْتِي مِنَ الْفِرَاتِ:

أَنَا هُوَ السَّاكِنُ فِي طَوْقِكَ يَا حِمَامَةَ
فِي سُرْبِكَ الرَّاحِلِ يَا خَطَافُ
أَنَا هُوَ الْوَاضِعُ كَالْعِرَافِ
رُؤْيَاهُ وَالْعِلَامَةُ
فِي الْأَفْقِ فِي لُغَاتِهِ الْكَثِيرَةِ
أَنَا هُوَ الْفِرَاتُ وَالْجَزِيرَةُ.

علامة . . .

مَهْلِكٌ يَا حَنِينِي . . .

أَلصَّقْرُ فِي بَادِيَةِ الْعُرُوقِ فِي مَدَائِنِ السَّرِيرَةِ
أَلصَّقْرُ كَالهَالَةِ مَرْسُومٌ عَلَى بَوَابِ الْجَزِيرَةِ
وَالصَّقْرُ تَطْرِيضٌ عَلَى عِبَاءَةِ الصَّحْرَاءِ
وَالصَّقْرُ فِي الْحَنِينِ فِي الْحِيرَةِ بَيْنَ الْحَلْمِ وَالْبُكَاءِ
وَالصَّقْرُ فِي مَتَاهِهِ، فِي يَأْسِهِ الْخَلَاقِ
يَبْنِي عَلَى الدُّرُورَةِ فِي نَهَايَةِ الْأَعْمَاقِ
أَنْدَلِسُ الْأَعْمَاقِ
أَنْدَلِسُ الطَّلَعِ مِنْ دَمَشَقِ
يَحْمِلُ لِلْغَرْبِ حِصَادَ الشَّرْقِ.

يَكْتُبُ الصَّقْرُ لِلْفِضَاءِ لِمَجْهُولِهِ السَّخِيَّ
سَائِلاً عَنْ مَكَانٍ، كَشْرُيَانِهِ نَقِيَّ
يُومِيءُ الصَّقْرُ لِلصَّقُورِ -
مُتَعَبٌ، حَمَلَتْهُ مَتَاهَاتُهُ، حَمَلَتْهُ الصَّخُورُ
فَحْنَا فَوْقَهَا، يَغْدِي مَتَاهَاتِهِ وَيُغْدِي الصَّخُورُ
وَجْهَهُ يَتَقَدَّمُ وَالشَّمْسُ حُودِيَّةً،
وَالْفِضَاءُ

مَوْقِدٌ،
وَالرَّيَاحُ عَجُوزٌ تَقْصُ حِكَايَاتَهَا،
وَالصَّقُورُ
مَوْكِبٌ يَفْتَحُ السَّمَاءَ؛

يَرْفَعُ كَالعَاشِقِ فِي تَفْجِيرِ مَرِيدٍ
فِي وَلَهِ الصَّبُوةِ وَالإِشْرَاقِ
أَنْدَلَسَ الأَعْيَاقِ
يَرْفَعُهَا لِلْكَوْنِ - هَذَا المِیْکَلِ الجَدِيدِ
كُلُّ فِضَاءٍ بِاسْمِهِ كِتَابٌ
وَكُلُّ رِيحٍ بِاسْمِهِ نَشِيدٌ.

(ربيع ١٩٦٢)

تحولات الصقر

كادت الفاقة أن تكون كفراً .

حديث شريف

عجبت ممن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على
الناس شاهراً سيفه .

أبو ذر الغفاري

١ - فصل الربيع

هذأت صيحة البراري :
الغيوم تسير على النخل
تجنح في آخر النخل ورديّة الصوّاري ؛

هذأت صيحة الرجوع :
أسألها - دمشق لا تُجيبُ
لا تُنقذُ الغريبُ
- « هل مرّ؟ إن يمرّ
مات بلا صوتٍ هنا أو سيرٌ . »

ساكنٍ حيث تغفونُ تطيلُ الرّفيرُ
في حقول البكاء
في السرير الذي فرشته الدموعُ

في الممر الصغير
بين أجفانها والسّماء .

.. هدأت صيحة الرجوع :

ليس في عيني شيء من حياتي
غير أشباح حزينه
غير أنّ الشجر الباكي على أرض المدينه
عاشق يسكن قلبي ويغني أغنياتي ؛ -

يا مرايا الضياع الطويل
غيري صورة القمر
لم يعد وجهها هناك
أمس كنا على القمر
فرأيناه عارياً
ورأيناه في الثياب
وصعقتنا من النظر
كان وجهاً من التراب

غَيْرِي صَوْرَةَ الْقَمَرِ
لَمْ يَعُدْ وَجْهَهَا هُنَاكَ
يَا مَرَايَا الضِّيَاعِ الطَّوِيلِ . . .

هَدَاتُ صَيْحَةِ الرَّجْوَعِ:

أَمْضِي وَيَمْضِي مَعِيَ الْفُرَاتُ
تَتَّبِعُنِي الْأَشْجَارُ كَالرَّايَاتُ
تَتَّبِعُنِي عَيْنَانِ مِنْ مَجَامِرِ السَّنِينِ
أَرْقِصُ فِي خَوَاصِرِ التَّيْنِ
مَعَ نَجْمَةِ سَوْدَاءِ .

غَيْرَ أَنَّ الصَّوَارِي
نَعَمَّ جَارِحُ الْقَرَارِ:
«إِنْ جَسْمِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِ
وَفُؤَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِ»^(١) .
هَدَاتُ صَيْحَةِ الرَّجْوَعِ
غَيْرَ أَنَّ الصَّوَارِي وَطَنُ اللَّدْمُوعِ:

« . . . ولو أنّها عقلت، إذن لبكتُ

ماءَ الفراتِ ومنبتِ النَّخْلِ ». (٣)

هدأتُ صيحةَ الرجوعِ:

حائِزُ حائِزٍ، ولي لعةٌ تهدرُ مخنوقةً ولي أبراجُ
حائِزُ أصلبُ النهارِ ويُغويني رعبٌ في صلبِهِ وهياجُ
حائِزُ تأخذُ الشواطىءُ ميراثي وتحمي صباحي الأمواجُ،

« غنيتُ عن روضٍ وقصرٍ شاهقٍ

بالقفر، والإيطانِ في السُّرادقِ

فقل لمن نامَ على التمارقِ

إنَّ العلى شدَّتْ بهمَّ طارقِ

فاركبُ إليها شَبَحَ المضايقِ

أولاً، فأنتَ أرذلُ الخلائقِ ». (٣)

هدأتُ صيحةَ الرجوعِ:

طاعِجٌ، أدرجُ تاريخي وأذبحه

على يدي، وأحبيه،

ولي زمنٌ أقوده، وصباحاتُ أعذبها
أعطي لها الليل، أعطيتها السراب، ولي
طلّ ملأتُ به أرضي
يطول، يرى، يخضر، يحرقُ ماضيه ويحترقُ
مثلي

ونحيا معاً نمشي معاً وعلى
شيفاهنا لغة خضراء واحدة
لكن أمّ الضحى والموتِ نفترقُ.

هدأت صيحة الرجوعُ :
أحلمُ يا دمشقُ
بالرعب في ظلالِ قاسيونُ
بالزمنِ الماضي بلا عيونُ
بالجسدِ اليابسِ ، بالمقابرِ الخرساءُ
تصيحُ : يا دمشقُ
موتي هنا واحترقي وعودي
تصيحُ : لا ، موتي ولا تعودي
آيتها الطريدة المليئة الفخزين يا دمشقُ.

يا امرأةً منذورةً لكلِّ من يَجِيءُ
لِلْحَظِّ، أو للعابِرِ الجَريءِ
ترقُدُ في حَمَى وفي ارتخاءُ
تحت ذراعِ الشَّرْقِ
رسمتُ عَينيكِ على كتابي
حملتُ ميراثكِ في شبابي
في العُوطَةِ الخُضراءِ في سفوحِ قاسيونَ
يا امرأةً للوَحْلِ والخطيئَةِ
أيتها الغوايَةِ المضيئَةِ
يا بلدًا كان اسمُهُ دمشقُ . . .

أَمْسِ ،
أنا والشَّعْرُ والنَّهَارُ
جئنا إلى العُوطَةِ واقتحمنا
بوَابَةَ الرَّجَاءِ
نَسْتَصْرِخُ الأشجارُ
نَسْتَصْرِخُ الحقولَ والمياه
ننسجُ منها رايَةً وجيشاً

نغزو به سَمَاءِكَ السَّوْدَاءُ
ولم نَزَلْ نَنسِجَ يا دَمَشَقُ
لا المَوتُ يُلهِينَا ولا سِوَاهُ
أَتَى لَنَا المَوتُ أو الرَّاحَةُ يا دَمَشَقُ؟

وَأَمْسِ فِي نَوْمِي يا دَمَشَقُ
سَوَيْتَ تَمَثَالاً مِنَ الصَّلْصَالِ
حَفَرْتُ فِي خَطْوَتِهِ البِيضَاءُ
تَارِيخُكَ الأَسْوَدُ يا دَمَشَقُ
وَرَحْتُ فِي رُغْبٍ وَفِي ابْتِهَالِ
أَسْقَطَ كَالزَّلْزَالِ
عَلَى رَوَابِي جَلَقَ الجَمِيلَةَ
أَحْضَنُهَا أَضْرِبُهَا أَغْنِي - هَاهَا هَلَا هَلَالُ
وَقَلْتُ: لا، فَلْتَبَقَ فِي حَنِينِي
وَفِي دَمِي دَمَشَقُ
وَقَلْتُ: لا، فَلْتَحْتَرِقْ دَمَشَقُ
وَاسْتَيْقَظَتْ أَعْمَاقِي القَتِيلَةَ
مَدْعورَةٌ تَصِيحُ: وَأَدَمَشَقُ...

يا امرأة الرّفصِ بلا يقينُ
يا امرأة القَبولُ
يا امرأة الضّوضاءِ والذّهونُ
يا امرأةً مليئةً العروقِ بالغاباتِ والوحدونُ
أيتها العاريةُ الضّائعةُ الفخذينِ يا دمشقُ،
تُصغينِ للموتى وللقبورِ والتكايا
تُصغينِ في خُشوعُ
وتعشقينِ الجُثثَ الصفراءَ والضّحايا
وتاكلينِ الطّينَ والدموعُ
أيتها المنهومةُ القاضمةُ القشورِ يا دمشقُ . . .

يا حُبُّ، لا . . .
عفوكِ يا دمشقُ
لولاكِ، لم أهبطُ إلى الأغوارِ
لم أهدمِ الأسوارَ،
لم أعرفِ النّارَ التي تُنادي
تُصجُّ في تاريخنا، تُضيءُ
سفينَةَ الكونِ الذي يجيءُ؛

عَفْوَكِ يَا دَمَشِقَ
أَيَّتْهَا الْخَاطِئَةُ الْقَدَيْسَةُ الْخَطَايَا . . .

١، ٢، ٣ أبيات تنسب إلى صقر قريش، (عبد الرحمن الداخل).

٢ . فصل الصعود إلى ابراج الموت

مَرَّ عَلَيَّ اللَّهَبُ الطَّالِعُ بَعْدَ الرَّجْمِ
وَالْتَحَمْتُ فِي خَطْوَيَ الْجُسُورِ
أَعْرَفُ أَنْ أَجْرِي مِثْلَ الْمَاءِ
فِي رِنَّةِ الصَّحْرَاءِ
أَعْرَفُ بَعْدَ الْآنِ أَنْ أَغَيِّرَ الْعَصُورَ
أَنْ أَمْزِجَ الْعَصُورَ بِالْعَصُورِ
أَعْرَفُ أَنْ أُعِيدَهَا
قَصِيدَةً أَوْ ثُورَةً أَوْ حَلِمًا . . .

أَسْرَعِي يَا سَحَابَهُ
أَيَّ أَغْنِيَةٍ تُنْشِدِينَ؟
أَسْرَعِي أَسْرَعِي يَا سَحَابَهُ

ما الذي تحملينُ
أيّ جَبَانَةٍ أو ربّاه؟

ألمح نهرًا يُسافرُ، يكيو وينهض في رأسيّ البعيدِ
عاشقًا يتقصّى رُؤايا
جالبًا أخذًا بريدي
حفرتَه المسافّةُ بيني وبين خُطايا . . .

خيمتي زوجةٌ تلينُ كأطرافي
وتحنو، وتنحني، وتضيقُ
صدّئتُ، والبريقُ
حجرٌ جالسٌ على طَرَفِ الوجه نبيٌّ لدمعه وصدقُ.

ما الذي تحملينُ
أيّ أغنيّةٍ تنشدين؟
أسرعيّ أسرعيّ يا سحابه . . .

جَسَدِي ضَائِعٌ ، صَارَ قَبْرِي كَالْخَيْطِ فِي كُفَّةِ الْعِبَاءِ
فِي الدُّجَى ،
وَالشَّبَاكِ الَّتِي تَتَصَيَّدُ أَشْبَاحَهُ ، وَوَهْمَ الْإِضَاءِ .

أَسْمَعُ صَوْتًا يَجْرَعُ عَلَى الرَّمْلِ أَيَّامَهُ الثَّقِيلَةَ
أَسْمَعُ أَحْلَامَهُ الْقَتِيلَةَ
كُلَّ حُلْمِ قَبِيلَةٍ
وَالخِيَامِ حَنَاجِرٍ مَشْدُودَةٍ وَالْحِجَابِ صَلَاةً :

- «عَلَّقِينَا هُنَاكَ ، بِالنَّخْلِ بِالْعُشْبِ
حَيْثُ الْحَيَاةُ

وَأَرْبَطِينَا إِلَى الْمَاءِ . . .

- «لَا مَاءَ ، لَا عَاصِمَ ، وَالنَّبِيُّونَ مَاتُوا» .

أَسْمَعُ تَحْتَ الْمَنَادِيلِ بَيْنَ الرُّكَّامِ
فِي الضَّحَى ، فِي انْكَسَارِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ،
فِي دَرَجَاتِ الظَّلَامِ
وَهِيَ تَعْلُو وَتَسْقُطُ ، بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّمْسِ ،
بَيْنَ الصَّدَى وَالْأَنْبِيَاءِ
أَسْمَعُ مِثْلَ الْحَنِينِ

مثلَ نبضِ اللَّيْوَنَةِ فِي صَخْرَةٍ لَا تَلِينُ
مثلَ دَفْقِ الْيُنَابِعِ مِثْلَ الْكَلَامِ:

- «نحن يا جائعُ كُنَّا مُتَّخِمِينَ

لم يكن موكبنا يمشي وراءكُ

لم يكفُّكَ ولا صَلَّى عَلَيْكَ

نحن يا جائعُ لم نسمع نداءكُ . . .

نحن صرنا جائعينُ

فتقبلنا لديكُ،

أمس، عدنا مُتَّعِبِينَ

فارتمينا وتوسدنا السَّيْنِ

وحلمنا،

ورأينا

أَنَا فِي الْحَلْمِ صَلَّيْنَا عَلَيْكَ . . .»

أَلْمَحُ نَفْسِي هِنَالِكَ فِي آخِرِ الرَّصِيفِ

(جسدي حُفْرَةً خَاوِيَهُ)

أَعْرِفُ نَفْسِي هِنَالِكَ فِي شَهْوَةِ ضَارِيهِ

فِي جَبِينِ تَعَوَّجَ فَوْقَ الرَّغِيفِ،

أَعْرِفُ نَفْسِي هِنَالِكَ فِي طِفْلَةٍ قَتِيلَةٍ

فِي السُّعَالِ الْمَدْوَرِ وَالرِّثَةِ الْمَسْتَطِيلَةِ

حاملاً صخرة المدينة
مائلاً كالقناطر في قبة المدينة
غامراً أنه المدينة:

«أسمع صمت الدهر
يحمل أكفان الرؤى ويغسل الجفون
يزرع أشجاراً بلا غصون
حول ضفاف العمر».

وهنا، بين الشقوق
فارس يسرج عينيه على ضوء العروق
يحضن الأرض ويستسلم للأرض ويغفو
مثلما تستسلم التخلّة للأرض وتغفو
في عباآت الفضاء
مطراً يأتي وواحات رجاء.

أعرف - صارت يدك
خيمة تتموج كالغيم شفاقة السماء
أعرف - صار الفضاء
ورقاً أخضراً يتطاير في بيتك الغريب
فأنا من هناك

أيها الجائع الغريبُ
مات صوتي هناكُ
عاش صوتي هناكُ
كان صوتي نبياً رميتُ على شمسهِ ردائي
كان شمساً من الدَّمعِ مجرّوحاً ورائي . . .

تائه؟ كيف؟
هاتِ صدركِ، يا تائه، واستمهلِ المدى والمسافة
فَرَشْتَ طِفْلتِي لكِ الحِلْمَ والنَّخْلَ وغزْلانَهُ
وعنقَ الزَّرَافَةَ
وروى حِلْمُها لجوعك، وقتَ النومِ،
أسطورة الجفونِ القصيرةِ
حيثُ تغفون ولا تنامُ
وتُستَنفَرُ في صدركِ الرياحُ الأسيره . . .

للروابي نَارَ، وللنخلِ أوتارُ
وفي اللّيلِ صَهْوَةُ المعراجِ
حيثُ تصاعَدُ الحُطى

ويصيرُ الحلمَ لوناً في سُلْمِ الأبراجِ
ويطولُ البحرُ القصيرُ
وتهوي الرّوحُ في جاذبيّةِ الأمواجِ .
علامةٌ :

«أعلو مع الهواء» .

علامةٌ :

«لي فرسٌ . . . وها هو الإسراء» .

علامةٌ من أول الزّمانِ :

«من ساحرٍ يأتي بلا دخان

من حجرٍ يصيرُ ياسمينته

يحبلى صمتُ الأرض بالأغاني

وتولّدُ المدينة» .

كان أن نُورَ النّخيلُ وأثمرَ في صرّخاتي

حيث لاقاني الخضرُ، صلّى صلّاتي

حيث تجتاحني كلماتي ،

كان أن صارتِ الجِرازُ

لغةَ الماءِ والعيونُ

كان أن أصبحَ الجنونُ

فَرَساً لِلنَّهَارِ؛ -
كُلَّ شَيْءٍ يُسَافِرُ بَيْنَ السَّنَابِلِ
يَحْمِلُ أَسْرَارَهُ، يَسْتَدِيرُ
خَشِيناً، طَيِّباً كَالرَّغِيفِ،
كُلَّ شَيْءٍ يُسَافِرُ بَيْنَ السَّنَابِلِ
يَهْجُرُ تَارِيخَهُ الْأَلِيفُ
كُلَّ شَيْءٍ يَصِيرُ
نَوْرَساً يَتَمَوَّجُ حَوْلَ الْمِيَاهِ الْعَمِيقَةِ
فِي مَلَى بَحْرِي الصَّغِيرِ -
بَحْرُ أَحْلَامِي الصَّدِيقَةِ.

تَائِهٌ؟ كَيْفُ؟
هَاتِ صَدْرَكَ، يَا تَائِهٌ، وَاسْتَعْجِلِ الْمَلَى وَالْمَسَافَةَ
فَرَشْتَ أَرْضَنَا لَكَ الْحَلْمَ
وَالنَّخْلَ وَغَزْلَانَهُ
وَعَتَى الزَّرَافَةَ:
حَانَ مِعَادُنَا، وَالتَّلَالُ
لَبَسْتُ حُفَّهَا، سَبَقْتَنَا التَّلَالُ.

تحت موج المدينة
قمقمٌ أخضرٌ فرشتهُ الرياحِ
ملكوتاً، ونامتْ
فوق ريش النهارِ
صار وجهي سواراً
للمدى، للسفينة
للشطوط الحزينة،
طاب، طاب الرجوعُ
لبلاد الحصون الأمانة :
نهضت قبلنا الرياحُ
وجرارُ الدموعِ
غسلت جبهة الصباحِ.

سأغني هناك
سيكون قناعي غريباً :
يداي طريق وقوسان ،
رأسي نهرٌ
ووجهي جزيرة

سأصيرُ حبيباً يُغامِرُ، أو عاشقاً ملائِكُ
سحرتهُ الأميره .

مَن يُريدُ طريقاً من البرق ،
من يشتهي السماء
وهي حُبلى بأحلامه ، والطريقُ
فَرَسٌ حولها يدورُ:
مِن هُنا تبدأ الطريقُ
مِن هُنا يبدأ العبورُ
مَن يريدُ طريقاً من البرق ، مَن منكم الرقيقُ؟

حانَ ميعادُنا ،
مَن يلمُّ البُقُولُ
مَن يهزُّ الغصونَ الخفيفه
في سهول الرّوى ويجرّ الخيولُ
من بُحيراتِها القصيه
نَهراً مُوحِشَ الرّحيلِ أنيساً إلى الرّحيلِ؟

مَن يُقيم على البلح داراً ويلبسُ كوفيةَ النخيل؟

حانَ ميعادُنا، والتَّلالُ
لبستْ خُفَّها، سبقتنا التَّلالُ.

٣ - فصل الصورة القديمة

زَمَنُ يَنْتَهِي ، وَخِيُولُ مِنْ الْفَجْرِ مَحْلُولَةُ الشَّكِيمَةِ
تَرْسُمُ الصُّورَةَ الْقَدِيمَةَ
لأَحْبَابِيَّ الحِيَارَى
فِي الضُّفَافِ الحَزِينَةِ فِي آخِرِ الصَّحَارَى ،
أَهْ يَا شَكْلِي الْقَدِيمِ
(كَيْفَ يَأْتِي ، يَعُودُ الْغَرِيبُ إِلَى شَكْلِهِ الْقَدِيمِ؟)
وَبِأَيِّ اللُّغَاتِ
سَاحِيَّ الْفِرَاتِ -
السَّرِيرَ الَّذِي هَزَنِي وَسَقَانِي مِنْ مَائِهِ الْكَرِيمِ؟

سَأَشْتَقُ عَرُوقِي
نَهْرًا يَحْمِلُ الْفَضَاءَ
سَادُورًا مَعَ الْكُوكَبِ الْمَغْرَبِ أَوْ جَمْرَةَ الشَّرُوقِ
لِابْسَاءٍ قَامَةَ الْهَوَاءِ

وأعود إلى نصفَي المقيم
في الضفّافِ الحزينة في آخر الصّحارى

أعطني أن أغنيَ أحبائي الحيارى
أعطني أن ألفَ حياتي
ورَقاً،

أن أسيرا
في جُذور الرّماذ
أعطني أن أكاشف هذي العضايفَ هذا الجماد
أعطني أن أكون الحصى والحريرا.

في زَمَن اللّيلِكِ والسّنونو والنّورس العاشق والأعياد
جئتُ إلى بغداد
على بساطِ جامعٍ وديع
كانت حقول العشب والنّبات
كانت رمال الماء والصّحراء
والسّفنُ الزنجية العيين في الفرات
حنجرةٌ خضراء

تَسْتَقْبِلُ الْآتِي بِلا تَخَوْمٍ
فِي موكبِ الْأَمْطَارِ وَالغَيُومِ
مِنْ جِهَةِ الْأَرْضِ، مِنْ الرِّبْعِ . . .

أَقْرَعُ أَجْرَاسَ الدَّمِ الْخَفِيِّ
تَحْتَ رِداءِ الْأَرْضِ
أَصْعَدُ فِي الْمَشَاعِلِ الْمُقِيمَةَ
تَحْتَ جَلِيدِ الرَّفْضِ
أَجْرِي مَعَ الْفِرَاتِ
فِي زَمَنِ سَحْرِي
مِنْ مَنبَعِ الطَّفُولَةِ الْقَدِيمَةِ الشَّيْخُوخَةِ الْقَدِيمَةِ .

كَلَّ دَمَ الْفِرَاتِ
فِي جَسَدِي يَجْرِي وَفِي حَنِينِي
وَهَا أَنَا أَزْنُرُ السُّهُولَ
أَسْهَرُ فِي الْأَكْوَاحِ وَالْحَقُولِ
أَشَدَّ بِالصَّيْفِ يَدَ الشِّتَاءِ
أَسِيلُ أَحْلَاماً عَلَى التَّرَابِ

لا سَفَرٌ فيها ولا غِيَابٌ
أَسِيلُ طوفاناً من البقاء
أَطْرُدُ عن شواطئ
بَحَّارَةِ الرَّحِيلِ
أَهْبَطُ فِي أَغْوَارِي الزَّرْقَاءِ فِي أُرُومَةِ الْقِرَابِ
أَبْحَثُ عَنْ بَدِيلٍ -
أَبْحَثُ عَنْ بَوَابَةِ الْغَرَابَةِ.
جِئْتُ إِلَى بَغْدَادَ
فِي سَعْفِ النَّخْلِ وَمَاءِ النَّهْرِ
فِي رِثَةِ الْعُصْفُورِ

(ثَمَّةٌ سَجَّانُ مِنَ الدَّمَاءِ
تَحْرُسُهُ التَّيْجَانُ
يَحْرُسُ أَقْفَاصاً مِنَ الرُّؤُوسِ
مِنْ جُزْرِ الْأَحْلَامِ وَالْبُكَاءِ؛
حَيَّتُهَا، مَلَأْتُ أَغْنِيَاتِي
بِاللَّهَبِ الْأَرْضِيِِّّ بِالْفُؤُوسِ
وَرَحْتُ مَسْحُوراً، بَغَيْرِ سِحْرِ،
أَخْتَرَقُ السَّجَّانُ

أَقْتَحُمُ الْمَدَائِنَ الطَّوِيلَةَ
أَدْخُلُ فِي الْأَقْفَاصِ فِي أَبْعَادِهَا النَّحِيلَةَ
أَشْعَلُ غَابَاتٍ بِلَا نِهَائِهِ...)

جِئْتُ إِلَى بَغْدَادُ
فِي سَعَفِ النَّخْلِ وَمَاءِ النَّهْرِ
فِي رِثَةِ الْعُصْفُورِ
كَانَ أَبُو تَمَّامُ
مَشْتَعلاً كَالجَمْرِ
خَلْفَ شتَاءِ اللَّيْلِ وَالْأَحْلَامِ
يَكْتُبُ أَغْنِيَهُ
بِالْقَصَبِ الْمَكْسُورِ
بِنَجْمَةِ الْمِيلَادِ
عَنْ رِحْلَةِ الصَّيْفِ الشَّتَائِيَّةِ
سُودَاءَ سَحْرِيَّةِ
تَحِيَّةِ الْآتِي إِلَى بَغْدَادُ.

لَمْ يَكُنْ فِي الشَّوَارِعِ، فِي الْمَاءِ بَيْنَ الْقُبُورِ
غَيْرُ صَمْتِ الْقِيَامَةِ
وَرَأَيْتُ النَّوَاسِيَّ يَهْذِي وَيَحْضُنُ قَارُورَةَ الْكِيمِيَاءِ

مُؤذناً بالعبور:

«كلّ رمحٍ حمامةٍ

كلّ أرضٍ سماءٍ»

وسمعتُ النواصيَّ مستطرداً كلامه

حارقاً غابةَ السُّكينة:

«ذاتَ يومٍ،

تصيرُ القصائدُ بوابةَ المدينة

نحو أرضِ الغرابةِ

وتصيرُ الغرابةُ

وطنَ الأنبياءِ،

ذاتَ يومٍ،

تسيرُ النجومُ على الأرضِ مثلَ النساءِ».

جئتُ إلى بغدادٍ

أخطو على بساطٍ

بين خيوطِ الماءِ والأشجارِ

أسيرُ في أغوارِي البعيدةِ

ألبسُ وجهَ النَّارِ

أَسْتَنْطِقُ الْأَرْضَ الْفِرَاتِيَّةَ
حَكَى لِي الْفِرَاتُ
مَا قَرَأَ الْعَشْبُ وَمَا رَوَاهُ
عَنْ سَفَرِ الْأَنْهَارِ وَالرَّعَاةِ
حَكَى لِي الْفِرَاتُ
عَنْ كُلِّ مَا رَأَاهُ...
أَسْمَعُ فِي الْأَحْجَارِ
أَغْنِيَةَ الْفُصُولِ
أَسْمَعُ مَا تَقُولُ
تِلْكَ السَّحَابَاتِ الرَّمَادِيَّةِ...

وَرَأَيْتُ الْحَشُودَ الْفَقِيرَةَ
جُدَلْتُ كَالضَّفِيرَةَ
وَقَرَأْنَا، كَتَبْنَا مَعًا، وَعَرَفْنَا
أَنَّ الْمَالِكُونَ الْيَتَامَى
وَصَرَّخْنَا، جَعَلْنَا مَقَابِرَ آبَائِنَا، وَجَعَلْنَا الْيَتَامَى
وَبِرَاكِينَنَا السَّجِينَةَ
نَهْرًا يَغْسِلُ الْمَدِينَةَ...

وركضنا إلى العشبِ، نُصغي إليه
ساجراً، باسطاً يديه
طالِعاً من شقوق الترابِ نقيَّ الكلامِ
وعرفنا من العشبِ أنَّ الطَّبيعَةَ
سَتَقِيمُ السَّلَامَ
بين أطفالنا والفجيعَةَ

ستكون شرايينهم كالجذورِ
وتشقَّ الصَّبَقِ
وتصيرُ جبلاً من الضَّوءِ ورديةِ الجُسورِ
تصل الموتَ بالرَّبيعِ
وتقومُ البذورُ
وتقومُ الصَّلَاةُ
في رواقِ على النَّيلِ يَسْمَعُ تسيحةَ الفراتِ...

أَلزَّمُنُ اخضَرَ، نما، وَطَالَ
أورقَ في الجُدرانِ والحِصونِ
أَلزَّمُنُ الأَنهارُ والتَّلَالُ

والزَّمنُ العيونُ:
قاماتُ أشجارٍ ربيعِيَّة
في غابَةِ الروحِ الفراتِيَّة... .

أَلزَّمنُ السَّيفُ هديرُ الموتِ
نهرٌ من الأضاحي
نهرٌ من الأنداءِ والجرارِ
يغسلُ وجهَ الموتِ
والكفنَ العاشقَ والأحزانَ
يغسلُ بالموتِ وعطرَ الموتِ
فاتحةَ القولِ: رنينَ الصَّوتِ
في لغةِ الإنسانِ.

أَلزَّمنُ استيقظَ والنَّهارُ
يصرخُ بالأغصانِ والجدورِ
يصرخُ: جاءَ الشَّعرُ
جاءتِ سماءاتُ ترايَّة
من غيرِ هذا الدَّهرِ

خضراء إنسيّة:
أَلْفُوقُ زَنَارٌ مِّنَ الْبُخُورِ
وَالْأَرْضُ جَنِّيَّةٌ.

٤ - فصل الأشجار

(مرثيات الصقر وشواهد قبره)

شجرة

زَرَعَ الجائعونُ
غابةً لِلرَّجَاءِ
صار فيها البكاءُ
شجراً، والغصونُ
وطناً للنساءِ الحُبالي
وطناً للحصائدِ؛

كَلَّ عُصْنِ جَنِينِ
راقِدٌ في سرير الفضاءِ
أخضراً ساحرَ الأنينِ
فَرَّ من غابةِ الرَّمادِ
من بروجِ الفجيعه
حاملاً آهَةَ الجائعينِ
شاكياً لِلطَّبيعهِ .

شجرة

كلّ يومٍ ،
يموتُ وراء المقاصير طفلاً ، يموتُ
زارعاً وجهه في الزوايا
شبهاً تتراكم قدامه البيوتُ ؛
كلّ يومٍ ،
يجيء من القبر طيفٌ حزينٌ
عائداً من بلاد المرارة من آخر الأقصي
ويزور المدينة - ساحاتها والتكايا
ذائباً كالرصاص .
كلّ يومٍ ،
تجيء من القفر جنّة الجائعين
وعلى وجهها علامه -
زهرة أو حمامة .

شجرة

يجهل أن يزینَ السیوف بالأشلاء
يجهل كيف تُبرقُ الأنیابُ.
يأتون في نَهْرٍ من الرؤوس والدماء
ويصعدون الحائطَ القصيرُ
وهو وراءَ البابِ
(يحلمُ أن يظلَّ كالأطفال خلف البابِ)
يقرأ فصل الجائع الأخيرُ.

شجرة

سقطت نَجْمَتَانُ
فوق رأسِ الغريبِ المسافرِ، مرّت سحابةٌ
فهوى، يأخذ التحيةَ
نخلةً تتقصفُ والدّمعُ ينقشُ أوراقها الذهبية:
نخلةٌ علّمتهَا الكآبةُ
أنّها تُرْجَمَانُ
أنّها دَفَتْرُ عَرَبِيّ الكِتَابَةِ
علّمتهُ الكآبه
في سِيَاحِ الحُدُودِ الخَفِيَّةِ
أنّه أوّلُ المِكانِ
والرِيَاخِ البَقِيَّةِ.

شجرة

قلتُ لك: استيقظ، رأيتُ الماءَ
طفلاً يسوقُ الرِّيحَ والجِجَارَ
وقلتُ: تحتَ الماءِ والثَّمَارِ
تحتَ غِشاءِ القَمَحِ
وسوسةٌ تحلمُ أن تكونَ
أنشودةً للجُرْحِ
في ملكوتِ الجوعِ والبكاءِ...

انهض، أناديك، عرفتَ الصَّوتَ؟
أنا أخوك الخضرُ
أسرجُ مَهَرِ الموتِ
أخلعُ بابَ الدَّهْرِ.

شجرة

لم أحمل الرمح ولم أُجوّف
رأساً،

وفي الصيفِ، وفي الشتاء
أرحلُ كالعصفورُ

في نَهَرِ الجوع... إلى مَصْبِيهِ المسحورِ؛
مملكتي تلبسُ وَجَهَ الماءِ:

أملكُ في الغيابِ

أملكُ في الدهشةِ والعذابِ

في الصّحوِ أو في النّوّةِ

لا فَرَقُ إن دنوتُ أو نأيتُ -

مملكتي في الضوّةِ

والأرضُ بابُ البيتِ.

شجرة

كان ينادي، يجمعُ الهواءَ
يحمل من كلِّ فضاءٍ عِرْقُ
ينسج للغرب رداءَ الشَّرْقِ؛
(ينزل عيسى حانياً عليه
أخضرَ كالجُمانِ
ينزلُ في المنارة البيضاء
في الجانب الأيمن من دِمَشقُ
ويقتلُ الشَّيطانَ
في الجانب الأيمن من دِمَشقُ).
وكان، والسَّوادُ في طريقه يُضيءُ،
يُغيِّرُ الأسماءَ
يعشقُ مَنْ ماتَ ومنَ يَجيءُ
ويهجر الأحياءَ.

شجرة

خَفْتُ، لاقاني الصبأُ
حَمَلْتِي الرِّيحُ
بعد أن راح قبري وودَّعتهُ ورجعتُ.
كلَّ شيءٍ يعودُ:
في الزُّهور قُضَاءُ وفي الماء يجتمعُ الوافدونُ
(كان بين الشُّهودِ
شَجَرٌ يتناسل فيه الأجنَّة والميتونُ
كان بين الحضور الفجيعه).
وسمعتُ الغصونُ
وهي تتلو قوانينها، فخشعتُ
ولبستُ الطَّبيعة.

شجرة

عند جيرونَ بَابٍ من الوردِ يغتسلُ العابرونَ
بشذاهُ

عندها خيمةٌ للجراحِ

عندها غابةٌ للصباحِ

كلُّ أغصانها جسورٌ تَقْتَفِيها العيونُ

نحو عبارةِ الرِّياحِ

لِصباحٍ سِوَاهُ . . .

واللَّيالي بيوتٌ من الحلمِ يَرْتادُها المتعبونُ

يجرحونُ مزاميرهم، يقرأونُ

كُتُبَ الماءِ والغبارِ

يجعلونَ الدَّموعَ الأَمِينَةَ

خَرَزاً وأكاليلَ غَارِ

وعقوداً، وجرحاً من الوردِ يغتسلُ العابرونُ

في يَنابيعه الحزينه.

شجرة

عُطِّي بِالرَّيْحَانِ .
بِالْجَزَعِ الشَّفَافِ ، بِالسَّرِيرِهِ
بِالصَّمْتِ ،
وَالْتَمَرِ الْمَضِيِّ ؛
وَقِيلَ : بَعْدَ الْقَبْرِ ، شَقَّ الْقَبْرَ ، أَلْقَى مَوْتَهُ وَطَارَ
يَبْحَثُ عَنْ أُمَمَةٍ
فِي وَطَنِ الْإِنْسَانِ ؛
وَقِيلَ : كَانَتْ زَوْجَةً فَقِيرِهِ
هنا وراء التلّة الصّغيره
حُبْلَى ،
وَبَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
فِي الصَّمْتِ ،
فِي التَّمَرِ الْمَضِيِّ ،
تَنْتَظِرُ الطِّفْلَ الَّذِي يَجِيءُ .

(أيلول ١٩٦٣ - أيلول ١٩٦٤)

تحولات العاشق

... هن لباس لكم وأنتم لباس لهن.

قرآن كريم

الجسد قُبَّةُ الروح.

القديس غريغوار بالاماس

- ١ -

كان اسمها يسير صامتاً في غابات الحروف،
والحروف أقواسٌ وحيواناتٌ كالمخمل
جيشٌ يقاتل بالدموع والأجنحة،
وكان الهواء راکعاً والسماء ممدودةً كالأيدي .
فجأةً

أورق نباتٌ غريبٌ واقترب الغدير الواقف وراء الغابات
رأيتُ ثماراً تتخاصر كحلقات السلسلة
وبدأ الزهر يرقص
ناسياً قدميه وأليافه
متحصناً بالكفن .

كانت المرافق العضلاتُ الوجوهُ بقايا وليمةٍ لنهارٍ مرضٍ ومات
ومدعوين لم تولد أسماؤهم بعد . . .

(ورأيت موكباً من الأفراس البيض تمتطي السماء، فهرولت
صائحاً: «ثعبانٌ يركض خلفي». وكررتُ صائحاً: «ثعبان طويل
كالنخلة...»

لكن موكب الأفراس أسرع ولم يسمعي. وقلت
آخذ فرساً وأنجو
توسلتُ وتحققتُ: لا صوتَ لي.
ربطتُ خاصرتي بريح الجزع، وتطايرت.

هوذا شيخٌ برائحةٍ طيبة، في طريقي
- «هل تقدر أن تجيرني من هذا الثعبان؟»
- «أنا ضعيف وهو أقوى مني. في الطريق من يجيرك، أسرع».
أسرعتُ حتى انتهيتُ إلى الهواء
كانت السماء ترنو إليّ أظهرُ وأغيبُ في الظلمة
والرياح تلتفّظ بي وتردّدي،
سمعت صوت الشيخ من بعيد:
«أمامك جبلٌ ملآن

بودائع الحياة. لك فيه وديعة تنصرك وتجيرك». وسمعت صوتاً آتياً من الجبل:
«ارفعوا الستائر وأطلّوا». التفتُ فإذا الجبل نوافذُ والنوافذُ أطفالٌ وأمّهات. ونظرت مصعوقاً: طفلةٌ تبكي، تقول هذا أبي ثم أشارت إلى الثعبان فولى هارباً.

وامتدّت نحوي يدُ
جذبتني وأدخلتني مكاناً لم أعرف عمره.

كان هناك سريرٌ ينتظرنِي. يجلس عند رأسه طيفٌ ينهض كالثدي ويلبس عجيذةً وصدراً وما تبقى،

واستيقظ جسدي، وهوى أسير المسامِّ وخواتمِ العين والسرة والطبيعة الثانية التي تتناسل فيها أنواعٌ ثانية من الخشخاش واللفُّاح وسواهما من نباتات الذكورة والأنوثة، وأخذ جلدي يتهيأ لسقوط كوكبٍ آخر في تجاعيده.

تكبرين في الجهات كلها
تكبرين في اتجاه الأعماق
تتفتحين لي كالنبع
وتستسلمين كالشجرة،
وأنا
كنتُ عالقاً بأبراج الحلم
أرسم حولها أشكالها
أبتكر أسراراً أملاً بها ثقب الأيام؛
نقشتُ على أعضائكِ جمرَ أعضائي
كتبتكِ على شفتي وأصابعي
حفرتكِ على جيبني ونوعتُ الحرف والتهجية وأكثرُ القراءات

كان تنهدي سحاباً يسندُ الأفق
رداءً أنسجه وتلبسينه مصبوغاً بالشمس
وكان الليلُ ضوءاً يقودني إليك،
في طياتِ ثوبكِ اختبأتُ
رافقتكِ إلى المدرسة

سرقَتْ خطواتنا أجراسَ العتبةِ
وانسللنا
جلستُ إلى يسارك في الصفِّ
نمتُ بين أهدابك
وما رأيتك

في سفَرٍ لم يصل إلينا كنتِ
ثيابك الأقاليمُ والفصولُ دربكِ إليّ.

على جذوع الشجر قرأنا اسمنا
مع الحجر تدرجنا
الشجر أصواتٌ مثلنا والتراب تحت وهجنا ثمرة
نرافق غيمةً
نتحدث مع البيوت
والنهار يسير خلفنا مكسوًّا بالعشب
ثم تصعدين بخوراً صوب قاسيون
وفي دخانك أترنح

طبعاً، أليفاً، ولي طعمك الخجول.

ليبير، ليبيرا، فالوس...
خيطة من الفجر حامض على العين يوقظنا
أحكمي عقدة الجفون.
في جسدينا يرفع الضوء تلاله وراياته
واللهب يمتد وسائد وسائد
أحكمي عقدة الجفون.
النهار يعلن الليل - استيقظي.

أحترق سفينة جسدي إليك
أستطلع الأرض الغامضة في خريطة الجنس
أتقدم
أكسو ممراتي بالطلاسم والإشارات
أبخرها بهذيانني الأدغالي، بالنار والوشم،
أحسب نفسي موجة وأظنك الشاطئ:
ظهرك نصف قارة، وتحت ثديك جهاتي الأربع.
أتشجر حولك
وأهوي، بينك وبينني، نسرأ بالآف الأجنحة.

أسمع أطرافك الهاذية
أسمع شهقة الخاصرة وسلام الأوراك
يغلبني الحالُ
أدخل صحراء الجزع هاتفاً باسمك
نازلاً إلى الأطباق السفلى
في حضرة العالم الأضيق -
أشاهدُ النَّارَ والدمع في صحنٍ واحد
أشاهدُ مدينةَ العجب
وتسكر أحوالي
هكذا يقول السيد الجسد.

آيتها المرأة المكتوبةً بقلم العاشق
سيرى حيث تشائين بين أطرافي
قفي وتكلمي :
ينشقُ جسدي وتخرج كنوزي
زحزحي نجومِي الثابتة
وأستلقي تحت سحابي وفوقه
في أغوار الينابيع وذرى الجبال.

تجتمع حولي أيام السنة
أجعلها بيوتاً وأسرةً وأدخل كل سريرٍ وبيت
أجمع بين القمر والشمس
وتقوم ساعة الحب
أنغمسُ في نهرٍ يخرج منك إلى أرضٍ ثانية
أسمع كلاماً
يصير جنائنَ وأحجاراً أمواجاً
وزهراً سماويّ الشوك
هكذا يقول السيد الجسد.

عاليةً عاليةً عاليةً
صيري وجهي الطالع من كل وجه
شمساً لا تطلع من الشرق لا تغيب في الغرب
ولا تستيقظي ولا تنامي...
أصعد إليك هابطاً إليك
أجمع أقاصي همومي وأطرافها

وأهجم عليك بقلبي
وأقول للوسوسة أن تطوف بي على كل خلية فيك.

تنصيبين سريرك
أو تفرشين الأرض
نزرع أشجار الجسد
نَغْطِيْ بِأصواتنا
إلى أن يحين ميقات الظهور.
اغتربَ الجسد
مسّه التحول

وَجَعِ المفاصل نبضُ الأطراف هندسةُ العضل وأبْهَةُ الفعل
الانقباضُ التقلُّصُ الانفساحُ
مهابطُ الجسد مصاعده سهوله ومدارجه التواءاته
أرضُ الخاصرة المليئة بالنجوم وأنصافها بيراكين الجمر
الأبيض
بشالات الجموح والشهوة

بعد هذا نتفياً سرادق الحوض

حيث يستدير كوكب الجنس
يكتمل التحول
يصير ثدياك الليل والنهار.
هكذا يقول السيد الجسد.

ليبير، ليبيرا، فالوس... .

(الحب على البحر، البحر على متن الريح، والدُّنيا كلُّها حرفٌ
في كتاب الجسد.

- ماذا رأيتَ؟

- فارساً يقول: «لا تريدن شيئاً إلا كان».

أخذتُ قمحاً بذرتَه وقلت له اطلع، فطلع. قلت انحصد،
فَحُصِدَ. قلت

انفركُ، فَفَرَكُ. قلت انطحن، فطحن. قلت انخبز،
فخُبِزَ

فلما رأيتُ أني لا أريد شيئاً إلا كان، خفت واستيقظت وكنتَ
على وسادتي.

وأنت ماذا رأيتَ؟

- ريحاً فيها شهب من النار وراءها أطفالٌ يقودونها

- ماذا أيضاً؟

- هضبةٌ تتحركُ وتنشقُ عن غزاةٍ جبلي

- ماذا أيضاً؟

- كنا معاً في مركب وكنت حاملاً . وبينما نحن في عناقنا الأليف
انكسر المركب، فنجونا على خشبة من أخشابه، وَضَعْتَ عَلَيْهَا
طفلك .

وصحت: عطشانة، فقلت: من أين ونحن في هذه الحالة؟ ثم
رفعتُ بصري إلى السماء وإذا بشبحٍ في الهواء يمدُّ لي
إبريقاً أخذته وسقيتكِ وشربتُ
ماءً أشهى من العسل وأطيب
ورأيتَه يغيّبُ وهو يقول «تركتُ هَوَايَ لِهَوَاهِ
فأسكنني في الهواء.»

طامحٌ جسدي كالأفق وأعضائي نخيل
تُثمرين فيّ
أفطف تحت صدركِ، أيسُّ وأنتِ ريحاني والماء
كلُّ ثمرةٍ جرحُ، وطريقٌ إليكِ
أعبركِ وأنتِ سُكنائي أسكنكِ وأنتِ أمواجي
جسدكِ بحرٌ وكلُّ موجةٍ شرعُ
جسدكِ ربيعٌ وكلُّ ثنيةٍ حمامةٌ تهدل باسمي

تحشرين إليه أعضائي
أنتجه في يهٍ وسكرات

أرتعبُ أتجاسرُ
أستنجدُ بالغابات والبراري
بالطينة الأولى

أتمزق أنفطر نازلاً إلى أغواره
مليئاً بخلائقٍ تشتعل تنطفئُ تشهق وتزفرُ،
تخطفني هاويةً منه

أصعد
ألملمُ قلبي المتناثرَ في نهاياتي
أرفع بصري إليك تنادينني :
«أبطأتَ يا حبيبي أبطأتَ
جسدي خيمةً أنت حبالها وأوتادها،
أبطأتَ يا حبيبي...»

طفلاً تحت ثيابي يصرخُ الحبُّ الحبَّ
الشَّجرُ مصابيحهُ والهواءُ برجه وأجراسه
راكضُ حبهُ في قَوادم الرِّيحِ
طائرٌ حيث لا حدَّ
في اتِّجاهِ السَّماءِ السَّماءِ السَّماءِ

تذكرين
بيتنا واقفٌ على جِدَةٍ في نسيجِ الزيتون والتِّينِ والنبعِ يرقد حوله
صغيراً كالبيَّوبؤ
تذكرين
الخشبُ يرفرف كالفراشات
والليلِ أولِ الأرضِ . . .

الليلِ . . .
عمّقي فُوَهةَ الصِّدرِ صيري متاهةً واحضنيني
يكون لي تاريخُ من الرِّعدِ
سهولٌ يحرثها الرِّحيلُ
جزيرةٌ من محابرِ الجسدِ

أصبل أطرافها بموتي وأسكن في أوائل الحروف
الليل . . .

بين الرّغب أنصب خيامي

أختلج

أهيمّ عتّة السفر

كلّ خلجة بلادٍ والطرق مضيئة كأحشائي

ننحني نتوتر نتقابل نتقاطع نتحاذي

(أنا لباسٌ لكِ وأنتِ لباسٌ لي)

تتخمرّ العضلة

وتأخذ البشرة لونَ البنفسج وطعمَ البحر

حيثُ تُوميء اللّجة وتُبحر أطرافنا

نسمع أنينَ السرائر

نلمحُ عروقنا تتزيّا بالموت

نتقوسُ ونكبو

آه الماء المخلّص الحُبُّ

لماذا التّعبُ الراحةُ يا نسيجاً أكثرَ تلاصقاً من الماء يا حبّ؟

أعراسُ أعراس

سِحْرُ آخِرِ يَضِيئنا لا الشَّمس

أعراسُ أعراسٍ
تفتح وجْهنا على مدائن السّحر
تفتح تخومنا على الجنس
والحلمُ أرضُ تدور تحت أهدابنا
يا للحبِّ الآخر في الحبِّ
أيها البعدُ الذي يبدأ بعد الأبعاد

كما خلقتكِ اشتهيتني
كما شئتُك انسكبتِ فيّ
تدخلين في إيقاعي
تدهنين ثديكِ بكلماتي وتغرقين في قرارة الحب
حيث أرفع مدينتي وأحيا
نحيا، ومن أعماق الأشياء الحاقدة نعلن الحب

نحلم أنّ أهدابنا محابرٍ والنهار كتابٌ مفتوح
أبعدَ من الحلم سرنا
أبعدَ من القلب أحبينا
قلنا لا تُسمِّنا لمن يُسمِّي واستيقظنا

أنتِ بحيرةٌ
وأنا جذعٌ لَفَاحٍ ومِلَانٌ بالأرضِ
أرسو في شواطئكِ وخصركِ مرساتي

أَيُّ مَدَّةٍ يَنْتَظِرُنَا؟
مَعْلُوقٌ نَفْسِي كَالْمَحَارِ وَأَنْتِ لَوْلُؤِي وَصِيَادِي
وَجْهَكَ حَامِلٌ شِرَاعِي وَبَيْنَ حَبْنَا وَالسَّمَاءِ فِضَاءٌ لَا يَكْفِي
أَكْشِفُ الْوَجْهَةَ الثَّانِيَةَ مِنَ النَّهَارِ
أَلْمَحُ الْجَهَّةَ الثَّانِيَةَ مِنَ اللَّيْلِ
أَصْرُخُ بِالْبَحْرِ: أَيُّهَا الْجَامِحُ انْكَسِرْ كَالْقَصَبَةِ
وَبِالرَّعْدِ: اسْمَعْ!
أَسْأَلُ:

هَلِ الْحَبُّ وَحْدَهُ مَكَانٌ لَا يَأْتِيهِ الْمَوْتُ؟
هَلِ يَقْدِرُ الْفَانِي أَنْ يَتَعَلَّمَ الْحَبُّ؟
وَمَاذَا أَسْمِيكَ يَا مَوْتُ؟

بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي مَسَافَةٌ
يُرْصِدُنِي فِيهَا الْحَبُّ يُرْصِدُنِي الْمَوْتُ

والجسد عمادتي

من أعماق الأشياء الفانية أعلن الحب

ليبير ليبرا فالّوس...

- «كيف تزوّجتني؟»

- «كنتُ أسير وحشياً ليس عندي ما أسكن اليه وأرتاح

فتمت نومةً واستيقظت

وإذا على وسادتي امرأة

تذكرت حواء والضلع الأدمي وعرفت أنك زوجتي.

يومها حلمت أنّ سحاباتٍ رُفعت لي

وناداني صوتٌ: اختر ما شئت

فاخترتُ سحابةً سوداءً منها وسقيتكِ

وقلتُ

أيها الجسد انقبض وانبسط واطهر واختر

فانقبض وانبسط وظهر واخترني

ورأيت ثوبي يميل عني

والظلام يغشاني
وطلع مني العالم صارخاً كالحرية:
«اهبط عميقاً عميقاً في الظلمة»

وقعتُ في الظلمة
رأيتُ الحجر ضوءاً والرَّمْلَ مياهاً تجري
والتقيتُ بك ورأيتُ نفسي
قلتُ

سأبقى في الظلمة ولن أخرج
لكن

جاءت الشمس وهربتني
ورأيت كل شيء يدخل في الشمس...

وكيف تزوجتني؟
«كان جسدي هبوباً إليك
يتلون بالأرض هبوباً إليك».



أمس،

أغلقت بابَ غرفتِي مع النجمة الأولى

أسدلتُ السّتارة الوحيدة ونمتُ مع رسائلها
وها وسادتي مبلّلة والكلمات حُبالي

أحلم -

أغسل الأرض حتى تصير مرآةً
أضرب عليها سوراً من الغيم سياجاً من النار
وأبني قبةً من الدمع أجعلها بيدي

«- ماذا أعددت لي هديةً أخيرة؟

«- قميصي الذي لقنا يوم تزوجنا.

وسأنزل معك

إلى القبر لأهون

عليك موت الحب،

أمزجك بمائي وأسقيك للموت

أعطيك ملكي: القبر ومجانبة الموت.»

مرّة رأيتها بحراً يعلو

عشقتُ الزّبدَ

وأقسمتُ أن تكون الأمواج جارتني

أنزه في ملحها همومي

وتقرأ عليّ أصداءها

(تري ما تحت الجلد. هل تريد، إذن، أن تكشف قارة

الأعماق؟ اترك لغيرك أن يكتشف قارة الأعالي.)

الأعماق...

(كنا حشداً كبيراً، نساءً ورجالاً، نسيرُ في طريق النساء.

فجأةً خرج علينا فهدٌ قطع الطريق. قلت لرجلٍ بجاني:

- أليس هنا فارسٌ يرد عنا هذا الفهد؟

- لا أعرف لكن أعرف امرأةً تردّه.

- أين هي؟

سار وسرت معه إلى هودج قريب فنادى:

- نادا، انزلي وردّي عنا هذا الفهد.

قالت:

- أيطيب قلبك أن ينظر إليّ وهو ذكر وأنا أنثى؟
قل له: نادا تحييك وتأمرك أن تفتح الطريق،
فحنى الفهد رأسه وغاب.)

الأعماق

لماذا تستعجلن موتي أيتها الصديقات؟

اتركني

أسمعُ في ذاكرتي أجراساً

أسمع في الأجراس أرضاً ثانية

تنقصني أرضٌ ثانية لأضيف إلى لغتي كلماتٍ جديدة

ينقصني

الموت

اتركني

دعني صدفةً قرأت شعرها عليّ،

قرأت أيضاً صفحاتٍ من كتابٍ تكتبه سمّته «غرفة الصدفة»،

كانت وهي تقرأ تكشف أسرارها:

رأيت فيلاً يخرج من قرن الحلزون
رأيتُ جمالاً وأحصنةً في محاراتٍ بحجم الفراشة
وُلد أمام عيني كائنٌ نصفه حجرٌ ونصفه الآخر
حيوانٌ أشارت إليه هامةٌ: هذا هو المرأة

ثم وشوشتني:

«ضع أذنك بين أوراقي» -

سمعت إيقاعات الفصول

سمعتُ موسيقى بيتٍ يتهدّم، يكبر وهو يتهدّم وحين آذنت
برحيلي سمعتُ أصواتاً تردّد:

«سلامٌ للأصداف، للمداخل اللولبية

سلامٌ لملكِ الجبال النائم هناك

سلامٌ لخطايفه المغنّنة...»

أغلقي

جسدي غرفةً مغلقةً

جسدي غابةً وسدودٌ وأقنيةً مغلقةً

أغلقي

جسدانا زوايا وأغطيّة ضيّقه
جسدانا رتاج وسقّاطة والممرُّ إلينا
ولّه في التّباتِ المعرّش في الفُسْحَةِ الضيّقه
بين أفخاذاً والعيون
ولّه يفرز الجنون
أغلقي
كلّ أصدافنا تظّل، وإن كُسرَتْ، مغلقة
أغلقي
أحكمي عقدة الجفون
لون أهدابنا، حين نعرى
ونلبس أحلامنا، وتُوسّوسُ،
خارطةً مغلقةً...

شَمْسُ العاشقِ تتدلَّى ويحنيها النوم
يلزم أن يأخذ الغيب عطلة الحصاد
أن يسبح وجهي في روح الدنيا
هل أمزق سفر الخروج
أنحني فوق صورتي وأقرأ رملها المزرد كالدرع؟
هل أهمس لثيابي:
تنقلي على عكازِ كمن يحلم واقفاً
تعلقي إشارات وبيارق
في أحراش الأصابع والرُقبة حيثُ أسكر وأدوخ كدوار
الشمس؟
هل أقول لهذا الكرسي:
اتبعني وابقَ وفيّاً للتعب الذي تشربته خلجةً خلجة؟
هل أذكر الموتَ بأوراقه التي نسيها عندي في زيارته الأخيرة؟
بين أصدافي وبينني قوس ألوانٍ ومسافات
تستطيع المدن أن تعبر تحته وتستريح
لأصدافي أيضاً شوارعها وأشجارها، ولها عُرف نومٍ وأعياد
لو يتكلم السرطان لسألته أين بيت الليلة
لو ينام البحر لفرشت له سريراً عندي...

١ - صوت :

«ترك رأسينا خارج العهد
نمنح لكليهما عقاقيره وأشباحه
رأسكِ وسادةً، رأسي بركان يشتعل

ثم نكتب الوثيقة:

«المرأة بيت موقت للرجل البيت الموقت
«الرجل غد الرجل، المرأة مستقبل المرأة»
مع ذلك نبدأ الصفحة التالية

نتحاور بالأرجل

بحبر المسام وكلماتها

ونلهو في ممراتها المقنعة

فجأة

تجيء الحمم توميء الصاعقة
نستيقظ ويجري كلانا وراء رأسه
في حنين السكّن والإقامة وأمواج الرّكض
وراء الوطن الآخر
الضّائع الدائم...»

٢ - حوار:

- بيني وبينك حجابٌ ولن تريني
أنى لك المفاتحة والكشف؟
وقع في قلبك الموتُ فاستنيري بالموت
ومن أين تخرقين العادة؟
تخبطين، تخلطين...
أحوالي لم تستحكُم فيك...
- أنا قرارك
طبختك شمسي
لبستك خاتماً ختمتُ به على الدهر.

٣ - أغنية:

جَسَدُ الشَّاعِرِ
جَسَدُ الطِّفْلِ والغَرَابِ
جَسَدُ فِي الكِتَابِ
فِي هَشِيمِ السِّتَائِرِ فِي البَابِ فِي الحِجْرِ السَّاهِرِ

بين عينيَّ والكتابُ
جَسَدُ في الزوايا
في السَّراب الذي يتناسل تحت المرايا
جَسَدُ يتناهى
حجراً طائراً يتلقَّفُ أو يضربُ السَّماءَ
جَسَدُ يفتَحُ في الحلم، يُعلَقُ في اللَّيلِ، يَمْتَدُّ بين الحروفِ
جَسَدُ كالحروفِ
جَسَدُ يتقهَّرُ في أوَّلِ الصَّفوفِ
جَسَدُ يترأى
كالطَّريقِ المعلَقِ، يفتح أوراقَه ويستنطقُ الفُضاءَ
حيثُ لا يعرف الصُّدى أدوارَه
حيثُ لا شيء فوق مسرحي المقبل غيرُ الصُّدى وغيرُ
السُّتاره...

٤ - أغنية:

أدعوكِ يا نهايةَ اللَّيلِ أنتشي وطولي
صيري على فراشي
ساحرةً،
أدعوكِ أن تقولي

ماذا يقول الحب للعاشق،

في نهاية الفصولِ؟

٥ - أغنية:

لم يزل شهريازُ

في السرير المسالم، في العُرفِ الوديعِ

في مرايا النهارِ

ساهراً يحرسُ الفجيعةَ

سرقَتْ وجهَهُ الكلماتُ الخفيفةُ

علّمتهُ السُّباتُ

في سوادِ البحيرةِ في زرقَةِ الحَصِ

بين أنقاضهِ الأليفةِ.

لم يزل شَهْرِيَاذُ

حاملاً سيفه للحصادِ

حاضناً جرّةَ الرِّياحِ وقارورةَ الرّماذِ

نَسِيتُ شَهْرزَادَ
أَنْ تُضِيءَ الدَّرُوبَ الخَفِيَّةَ
فِي مَدَارِ العُرُوقِ
نَسِيتُ أَنْ تُضِيءَ الشَّقُوقِ
بَيْنَ وَجْهِ الضَّحِيَّةِ
وخطى شَهْرِيَارُ.

(١٩٦٢)

أقاليـم النهار والليل

تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً.

قرآن كريم

آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

الإمام علي

وكنت لا أرى في النوم شيئاً إلا رأيتـه في اليقظة.

أبو القاسم الجنيد

١ - فصل الحجر

- ١ -

- «سلامٌ. ألكَ رفيقٌ يؤنسك؟

- «نعم.

- «أين هو؟

- «أمامي وخلفي، عن يميني وشمالي.

- «ومن أين تأكل؟

- «حين أحتاج إلى الطعام، أسمع فوق رأسي صلصلةً. أنظر فأرى كأساً تتدلى

وشخصاً في الهواء يناولني رغيفاً.

- «ومن يزورك ويخدمك؟

- «الدنيا. تجيء إليّ في شكل امرأة ضيقة الخاصرة.

- «هل ترافقني؟

- «إذا رأيتني مرةً ثانيةً، لا تكلمني.»

تعبرُ نارُ زرقاء في الجمجمة
تعبر في أوائل الهدب
حيث تنهض أرضي وتوميء وتنحني -

أرضي!
صوت طالعٍ من هنالك
عطرٌ يأتي
جبالاً تستيقظ كاعناق الأطفال
سُعالاً يتهدج في حناجر الماء،
وفي طبقات الورد والزُرقة
أشخاصٌ يأتون يروحون يكتسون بالبراعم
ويمسحون دموعهم بالأوراق.

أرضي...
امرأةٌ بخضرة اللهب
يتصاعد حنينها وسائد وسائد
تتعري المسافة
وتمتلئ وجه الليل بشامات الروح.
هكذا أزدهي صائحاً: مَنْ يعرف مثلي الأسرار وقد نفخت بين

شفتي الأرض؟
أتربع في الهواء
أدثر بالذنيا
أتعب، أضرب خيمتي بين عيني،
وحين أعود
أغلق بيت نفسي وأشتغل بحالي.
أرضي!
عالمة كالجسد، مليئة كالجسد
كل عضلة فاتحة،
كل فاتحة عتبة:
اقرع أيها الزمن اقرع

ثمة سلاسل
مسامير
قُضبان
بشراً بأقدامٍ أربع تصهل وعلى اللجام أحلامٌ وعطور
التقديسُ التصديقُ العجزُ
السكوتُ الإمساكُ الكفُّ التسليمُ التسليمُ
ثمة أصواتٌ تتعالى
البدعة، البدعة! المحدث، المحدث!

نُبِطِلُ سَنَةً قَدِيمَةً
نَرَدُ لِلْإِنْسَانِ اسْمَهُ
وَنَبْدَأُ
أَقْرَعُ أَيُّهَا الزَّمَنُ أَقْرَعُ
يَلْزَمُ صَبْرُ الْحَجَرِ
تَلْزَمُ شَجَاعَةُ الْقَبْرِ.

أَنْهَضُ نَحْوَكِ يَا أْبَعَادِي
أَرْضاً
تَتَطَايَرُ فِي هَوَاءِ التَّارِيخِ
تَتَقَصَّفُ غَصْنًا غَصْنًا.

انْطَفَأَتْ نِيرَانُ خِيَامِهَا وَمَعْسَكَرَاتِهَا
انْطَفَأَتْ شَهْوَاتِهَا

أَسْمَعُ فَوْقَ رَأْسِهَا نَاقُوساً مِنَ الْعِنَاكِبِ
أَلْمَحَ عَلَى قَبْرِهَا غَطَاءً مِنَ الْكَلِمَاتِ الشَّائِبَةِ، -
نَجْمَةٌ تَتَقَمَّصُ نَعْجَةً لِتَعْرِفَ السَّمَاءَ وَتَشْهَدَ،
غَيْمَةٌ تَذُوبُ،

تَنْفِيًا ظِلَّ صَخْرَةٍ وَتَنْتَظِرُ التَّرَابَ عَشِيْقَهَا الشَّيْخَ،
رِيحًا مَسْحُورَةً بِخُرُومِ الْإِبْر... .

أرضاً

تتقصفُ غصناً غصناً، -

ثدي النملة يفرز حليته ويغسل الاسكندر
الفرس جهات أربع ورغيف واحد
والطريق كالبيضة لا بداية له .

أنهض نحوك يا أبعادي

أرضاً -

جسراً كالطفل يرضع أعمدته

ورقاً تكلس فوقه الكلام

اللسان ينبت في الأقدام طويلاً حتى السرة

واللغة رمادٌ يتكوم قرب العجيزة؛

أرضاً

تتقصفُ غصناً غصناً -

الجدار يصيرُ دمعاً والدمع ضججاً

النهار يكتهلُ حيناً إلى الموت

كل شيءٍ يسافر تحت راية البراعم

براعم النشور والقبر
القشّ والمطر
الزّرع والحصاد
كلّ شيءٍ زهراً أسود،
الحوانيتُ غيومٌ حُبلى بالبرق
الشّوارع قامات يكسوها الحلم
الحلمُ طائرٌ مليء المخالب يُعشّشُ في سقف الأيام
رمحٌ يخرق الفارسَ والدّرع
يجلسُ فوق الغنيمة ويشربُ النّجيعَ كالخمر
نجيع اللؤلؤ والكتابيّ،
الحروفِ المقدّسة وأسرار الموائد والكراسي... .

أرضاً، أرضاً، أرضاً
ثمّة رأسٌ كالصّندوق يلبس حذاء النبوة
سُرّة ترتسم على جبين المقاهي
عرسٌ يدور تحت سراويل الموت
حجرٌ يتأب،
ثمّة وارثونٌ خفافٌ كالريش يحملون الطمي والترسبات
ثمّة نارٌ أجبين من الماء.

أنهضُ نحوكُ يا أبعادي
أرضاً

تتناول خيمةً خيمةً:

ينتظرني خوانُ الفتوى -

باقاتُ الكتب

فناجين الكلام

عطرُ يتسلسلُ

من أردان امرأةٍ يبست في الدنيا ونورَ نهداها في حدائق الآخرة،

ينتظرُ مقعدُ بحجم القفص -

أشهد مسرح النهايات،

نهاية الشمس والهواء

الوثب والعلو برحمة الشهيق والزفير

نهاية الثقوب التي تربط النفس بخيط الأشياء الجبلى بالأشياء

ونهاية الجنين.

وتحت الخوان يجثم النهمُ

ويتكومُ الفضاءُ جثةً تسكر حولها مناقيرُ الجوع

والعودة إلى أولِ

الدائرة،

وراء الاجترار وخطوطه عرضاً وطولاً وإلى أسفل سافلين . . .

أنهض نحوك يا أبعادي
أرضاً

موجاً قائماً في الهواء
فرساً من المسك تنبتُ حوله أشجار الدفلى
أنهضُ نحوك -

الجبالُ عروقي وبين لحمي وجلدي ديبُ النمل: أرتعش،
يسقط من كلِّ رعشة كتاب.

(هنا،

طلع أمامي ثورٌ بثلاثين قرناً وعشرين قائمة، وبين أذنيه ياقوتة
خضراء.

ورأيتُ دابةً غريبةً تمشي . تناولتُ حجراً، فأسرعتُ هاربةً إلى
النهر، وسبحتُ على ضفدعةٍ إلى الجانب الآخر. تبعتها. نزلتُ
عن ظهر الضفدعة وسارت. رأت رجلاً نائماً يهْمُ ثعبانٌ كبيرٌ
بلدغه. عضته الدابة. قتلته وغابت. فازددتُ تعجباً، ثم

أيقظتُ الرَّجُلَ فقام، ولما رأى الثَّعْبَانَ بدأ يهربُ. فقلت:
لا تخف، وقصصتُ عليه القِصَّةَ).

أنهضُ نَحْوَكِ يا أبعادي
أترَوُدُ بعصاي -
أشتهي الفاكهة.
أغرسها أشجاراً تورق وتثمر للحال،
أظمأ، تصيرُ إبريقاً
أدخلُ مغارة اللَّيْلِ
يصير طرفها الأسفل ناراً والأعلى قمراً،
وقبيلَ النَّومِ، تطيّبني وتحادثني،
وحين تعرف أنني غاضبٌ تُصبحُ شيئاً آخر
وتحرقُ ما تراه...

أنهضُ نَحْوَكِ يا أبعادي
أصعدُ في الحَجَرِ والدَّمعِ
أصرخُ الهواءَ الهواءَ، وأشفقُ على غيري من صراخي،
أصعدُ، أتعبُ، أسقطُ في خدرِ بلا لَوْنٍ في عالمٍ لا يليقُ بي.

أرى رجلاً صالحاً يركب على جرادةٍ ويلبس خُفّاً أحمر
ويقول: الدّنيا سِحْرٌ سِحْرٌ...

- («أين أشاهدُ صديقنا الخضر؟»)
- («عند الصّخرة في كُوّةٍ على البحر، وترى أثر جناحيه في
الطين»).

ورأيتُ الخضر يُدخل جناحيه تحت المدينة ويقتلعها...
المدينة!

(السّراطينُ تخرج إليها كالليل، تدخل البيوتَ بَعْتَةً وتقفز بين
الشّفاة)

أصعد نحوك يا أبعادي وأدعو ما حولي ليشاركني الولادة:
أصيرُ شيئاً من المكان - جدولاً، أو سمندلاً، أو خزامى، أو غير
هذا من خلائق الرّبِّ سبحانه
تُولد آنذاك الشّفاية

أدخلُ آنذاك في النسيج الكوني،

أصعدُ أصعدُ أصعدُ

تهتُ

وقعتُ في بَرِّيَّة:

(هذه عجوزٌ جميلة تركب على أسدٍ حوله سباع كثيرة. طاش

عقلي.

قدّمت لي كوزاً أحمر ما رأيتُ أشهى من مائه.

- «مَنْ أَنْتِ وَمِنْ أَيْنِ؟»

- «قيل لي أن أسقيكَ وأدلك على الطّريق.»

- «مَنْ قَالَ لَكَ؟»

ولم تجبني العجوز الجميلة وغابت عن عيني.

وصاح طائرٌ فسمعت صوتها يسألني:

- «أتعرف ما يقول؟»

- «...»

- «يقول: النهارُ في ضيقٍ وبين جناحيّ يستطيع أن يُقيّمَ

ويتبحّج.»

وحين ناداني نسرٌ سمعتها تضحك وهي توشوشني:

«يقول : في البعد عن الناس أنس.»

وصاحت الشمس وهي تطلع فقالت:

- «أتعرف ما تقول؟»

- «...»

- «تقول: أنا قصدير الأرض، يُجلى بي صداً العالم، وبي

تُلحم أجزاءه.»

أصعد أصعد أصعد نحوك يا أبعادي
وحين تظهر غيمةً أقول جاءت مرساتي.

- ٣ -

يلزمني الخروجُ من أسمائي -
أسمائي غرفة مغلقة

جُبُّ غائب

علي أسبر علي أحمد سعيد علي سعيد علي أحمد أسبر علي
أحمد

سعيد أسبر

يصارع يتكسر كالبلور

وأدونيس يموت

والهواء شقائق وأعراسُ في جنازته

أورفيوس!

الرّعاة يبحثون عن ذبيحة. قل لرأسك أن يطفو مركب
أغنياتٍ على النّهر، وامنحهم نعمة أن يروك. الوباءُ جالسٌ مقيم
لا يطرده إلا صوتك - إلا دمك، أورفيوس! أورفيوس...

- اهدأ أيها البقر الوحشي اهدأ

لم يعد وراء جلده غير الاپر

والحبّ هذه اللّيلة شيخٌ في العشرين...

أهدأ أيها البقر المسكون بالزلازل
الجدران تتلوى كالخيزران
والرياح تتوافد أبراجاً أبراجاً...
اهدأ يا بقرأ محشواً بالليل
الضوء يفتح الشبايك جارياً كالمهر
والشارع مياةً وأطفال...

يلزمني الخروج من أسمائي، -
- هل يخرج من جلده ويمضي؟
يشجعني ويهتف بي هاتف:
حرّك شفّتك بكلامٍ لا يفهمه غيرك فيصغي
إليك الورق وجحيم الأغصان
تسمع من يجيبُ موشوشاً: تلزمك صحبةً مع غير العالم -
تطالع بجوارحك الغيب، وتحيا مطبوعاً على البدعة،
وسوف أعتصمُ بجوعي،
لن أشبع
لن آكل إلا موتي.

لماذا لا يأنس إليّ غير الهواء والحجر؟
لماذا لا تُسرّ بي غير الأشياء؟
هل أنا وحش الحقيقة في هذه الخرائب حولي؟
ومتى ستُفتح عليّ تهاويلُ الدنيا؟

- ٤ -

شَبَّحٌ يتغلغلُ بين سلاالمِ الوقتِ
شَبَّحٌ يَسِيرُ في تجاويفَ لَيْتَه
يحملُ أفكاراً تفرّخُ في رؤوس النخيلِ ورملِ الشّوارعِ
يحملُ قلوباً أَحَنَّ من العصافيرِ؛
ليدخلُ هذا الضّجيجُ الطّويلُ القدمينِ الآتي باسمِ آتٍ لا أنتظره،
لو استيقظ مثلي الطّريقُ الذي سيعبره لَتَنَاقَرَتْ أثيراً من نوعٍ آخرِ،
والتفت وتقلّصت وارتدت نهاياته ارتدادَ الموجة، وهدأت
عند قدمي،
ليدخلُ،
لو كنتُ شجرةً لرأيتُ أهدابي موصولةً بالأفقِ
والأفقِ موصولاً بغيره
وغيره موصولاً بالنقطة التي تجذبني وحولها أترنحُ وأدور،

لو كنتُ ثمرةً لرأيتني
أسافرُ بالورق وغير الورق
بالبراعم والغصون
بالهواء وشعاع الشمس
ثم أتراجع
أتلممُ
أتجمّع
وأسقطُ في نفسي ناضجاً وعمودياً؛
لو بقيتُ حلماً
لو أبقى
لو البقاء حلمٌ
والحلمُ أرضٌ مدوّرة كالبيّوٲ؛

ليدخل، -

كيف أمزجُ كالهواء وأعجنُ غير عجنِي الأوّل؟

ليدخل، -

مَن لي بما يذكرُ ويشهي:

ذهب الاستطرافُ

ماتت الشهوة

وشيّخُ كلِّ شيءٍ.

ليدخل، -
أعنده الرِّيحُ التي تكبُّ الأفق؟
ليدخل،

أفتحُ وأطلُّ
أسمعُ أن حولي أناساً يتناسلون، يموتون
يحاربون، يحلمون

ولا أراهم،
مع ذلك،
أعرف البشر كلهم
أذكر
قابلتهم في واحةٍ بين أذنيّ - قربَ سريرتي،
لكن لا تزاوَرَ بيننا،
الأشياء وحدها أراها وتراني.
أسمعُ أصواتاً -
صوتاً يقولُ لي:
«تُفارقُ نفسك وتمضي

سَفِينَةٌ نَفْسِكَ فِي نَفْسِكَ
بَيْتاً كَالسَّحَابِ
وَلَا دَعَامَةَ...»

حَجراً يَصِيحُ بِي:
«أَنْتَ غَرِيبٌ أَنَا سَرِيرُكَ.»

أَجْنَحَةٌ عَابِرَةٌ تَنَادِينِي:
«النَّجُومُ فَوْقَكَ زَيْدٌ ثَابِتٌ
وَالغَيُومُ قُبُورٌ تَتَحَرَّكُ...»

٢ - فصل المواقف

- ١ -

« . . . وأوقفني في الرحمانية فقال: لا يستحق الرضا غيري،
فلا ترض أنت فان رضيت محقتك».

التفري

(موقف العظمة)

- ٢ -

«وقال لي: النعيم كله لا يعرفني والعذاب كله لا يعرفني،
وقال لي: معنك أقوى من السماء والأرض».

التفري

(موقف المحضر والحرف)

- ١ -

- الزَّمَنُ فَخَارُ وَالسَّمَاءُ طَحْلَبُ . ماذا تفعل؟
- أَصْبِرُ الرَّعْدَ وَالْمَاءَ وَالشَّيْءَ الْحَيَّ .
- وحين تفرغ المسافات حتى من الظل؟
- أملؤها بعين تلبس الجهات الأربع ،
أملؤها أشباحاً تخرج من الوجه والخاصرة
وترشح بالحلم وذاكرة الشجر .
- وحين لا تواتيك الدنيا؟
- ألهو بعيني ليزدوج فيهما العالم
أرى السماء اثنتين
الأرض اثنتين

إلا أنا -

أبقى واحداً .

- وحين لا يبقى غير الحجر صديقاً؟
- أهتف: يا صدقة! إنني جزؤك الرخو!
وأدير قرني للشمس .

- ٢ -

جَسَدِي يَحْوِمُ فَوْقِي خَفِيفاً كَالرَّوْحِ
حَجْرٌ يَتَدَحْرَجُ وَرَائِي
نَبْعٌ يَنْتَظِرُنِي ؛ -

وَدَاعاً أَيُّهَا الْجَوْهَرُ الثَّقِيلُ يَا رِخَامَنَا الْبَشْرِيَّ
وَلَيَّاتِ الْعَابِرِ الْخَفِيفُ
النَّهْرُ وَوَجْهُهُ
الرَّيْحُ وَأَطْفَالُهَا
وَلَتَّاتِ الْأَجْنَحَةُ الْمَلِيئَةُ بِالْغَيْمِ .

أغنية :

إِنَّهُ جَمْرَةُ الزَّمَنِ الْيَابِسِ :
لِيَغْبُ وَلِيَضْعُ

فِي نَسِيحِ خَلَايَاهُ فِي الظَّنِّ فِي الْهَاجِسِ ...

أغنية :

- جَاءَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ فِي مَوْسَمِ الْكَهْوَلَةِ
لَمْ يَنْمِ فِي سَرِيرِ الْأَسَاطِيرِ ،

لم يعرفِ الطفولةَ .

تنهضُ في جَسدي أرضُ
تهمسُ لأيامي أن تكونِ شبابيكها،
تعلمُ خطواتي أن تصيرَ باسمها رسائلَ وعصافير،
هكذا أعبرُ كالزجاج، شفافاً ولا ظلَّ لي،
في طريقِ من الأجنحة .
أتحرّر، أسجنُ أعضائي داخلَ أعضائي
أصيرُ كبيرِ اللؤلؤة :
أضربُ العيونَ وأعودُ إلى بؤرتي .

من يعطيني ورقةً أحملها أكداً من البخور والصندل أنقطها
كالعروس وأجلوها
أقرأ عليها سورة مريم
أهزّ فوقها جذوعي من الشوق والحلم
وأرسلها إلى أحبابي
مليئةً كالتفاحة

خفيفةً وخضراء كمهرة الخضراء!
وأنتم،

يا من تكرهون التلّفظ باسمي
تُلصقونني بعيونكم حين تقرأون أخبار الوفيات
وتصرخون:
قَسماً ، يسيرُ وفي كلّ جيبيةٍ من جيوبه مدفعُ
وامرأة عارية

أنتم أيّها الملائكةُ
الأطهارُ

المنقذون
القواد

الحكماء... الخ،

ألتمسُ منكم في هذه اللّحظة معجزةً واحدة
أن تعرفوا كيف تقولون: وداعاً، واو دال ألف عين ألف
معجزةً واحدة: وداعاً

بيننا بعدُ الرّوح

بيننا الأعماقُ والسّفَرُ في فضاء الأعماق.

برقية من بلاد نسيت اسمها:

البلادُ صغيرةٌ كعلبة الكبريت.

والشَّمْسُ لا تُشرقُ هنا - هل
تشرق عندكم، حقاً؟

مفكرة الشهر الماضي:

السَّهَر - والقهوة أحياناً. نقرُّ
وهميَّ على الباب: نقرُّ لا يهدأ.
جمعية جديدة اسمُها جمعية
الحيوانات الميِّتة والحيَّة لِلرَّفق
بالإنسان. لعب الورق مع
أرواد. الكلامُ أحياناً.

يومية بدون تاريخ:

حوار قديم:
الطفولة: العالمُ رجلٌ يُسرج
حصانه في زيارةٍ إليك.
سيدعوكُ إلى صداقته.
أنا: صداقته؟ ليمتُ أولاً
وليأت. بعد هذا يأتي الكفن.
بعده القبر. ثم تأتي الصِّداقة.

نمتُ مرَّةً ولم أكن متخماً
فرايتُ صديقاً يدخل ويخرج بين أصابعِ قدميَّ

آخَرَ يَحَلَّ سَيُورِ حِذَائِي وَيَلْتَفَّ بِهَا
وَرَأَيْتُ صَدِيقًا يَذْبَحُنِي .

أَسْمَاءُ أَسْمَاءُ

أَسْمَاءُ تَشْغُو، تَصِيءُ، تَلْدَغُ وَتَصَلِّي
تَجْرَحُ الْجِنِينَ الْمَهَاجِرَ بَيْنَ الْبَرْعَمِ وَالثَّمَرَةِ وَتَسْتَضِيءُ بِالسُّوسِ،
أَسْمَاءُ الْخَنْقِ وَالْحَرْقِ وَاحْتِضَارِ الْمَاءِ وَالْأَجْنَحَةِ
أَسْمَاءُ اللَّكَاعَةِ

اللَّهُلَهْ

اللُّكَاثُ .

اللَّهُوَقَةُ

اللُّقُوَّةُ

لُقْيَا اللَّفَاءِ وَاللَّقْسِ وَلِهَاتِ الْمَوْتِ

وَدَاعًا، دَا . دَا . دَا

وَدَاعًا .

أغنية:

من ثلاثين عاماً أضيّع وأكتشف الآخرين
كان لي سفنٌ ومرايا
في مغاورَ ، حتّى الصّغارُ
يجهلونَ مفاتيحها،
كان لي ساحرانُ
يخطفان الهدايا
من كنوز البلاد البعيدة، من حارسِ البحارِ؛
وكأنّ الفضاء النّحيلُ
كان لي فرساً للرّهان
فرساً تتطاوّلُ تيّاهةً كالنّخيلِ
تسبقُ حتّى الفراشات، حتّى ضبابَ المكانِ..

من ثلاثين عاماً
أضيّع، وأكتشف الآخرين
حيث أعطيتُ وجهي للغيم، أعطيتُهُ للحقولِ الحزينه
حيث كنا - أنا والصبّاحُ
عاشقينَ ربّطنا مسافاتنا بثيابِ المدينه
وملأنا حقائبنا بالرياح

وجعلنا الرِّياحَ
لغةً وقصائدً للآخرين .

من ثلاثين عاماً أضيّع ، واكتشفُ الآخرين :
أعرفُ أنَّ البكاءَ
رثةٌ للحزينُ

أعرفُ أنَّ العصافيرَ شِبَابَةٌ ، والسَّماءُ
شَقَّةٌ لا تُحاورُ غيرَ الجنينُ
أعرفُ أنَّ الطَّريقُ

لغةٌ في شعوري ، لا في المكانِ
لغةٌ في العروقِ وفي نَبْضِها ، لغةٌ في السَّريرةِ
حيثُ تأتي المسافاتُ من أولِ الرُّوحِ موصولةً بالبريقِ
ببريقِ الفتوحاتِ والكشْفِ والعابرينُ
في التَّخومِ الأخيره .

أعرفُ أنَّ الوجوهَ مَرايا ، وأنَّ الصِّديقَ
حَجَرُ؛

كان وجهُ الحَجَرِ
حُلماً ، كان وجهاً يُضِيءُ
ويُضِيءُ على شفتيه الكلامُ

كان لي دفترًا أتوسدُ أوراقه وأناّم.
أعرفُ أنّ الصّديقَ
فارسٌ في الضّفافِ القريبةِ لكنّه لا يجيءُ.

وداعاً يا أنقاضي!
دميةٌ تدخلُ بعتّةٍ من النافذة، تحملُ الجدرانَ الأربعةَ وتمضي،
طفلاً
يعلّقُ أهدابه على الشجرِ كالمناديلِ
وفي الحجرِ يستريحُ،
بيتٌ يحضنُ دفترًا ويركضُ حافياً إلى المدرسة،
كتابٌ يضعُ نظّارةً
يربّي الأرانبَ ويدربُ العصافيرَ على المهنةِ الحرّةِ
وداعاً يا أنقاضي!

أغنية:

ذاكرٌ، ذاكرٌ شبّابي:
جُزرٌ في يديّ وفي قامتي
جُزرٌ في ثيابي

كنتُ بابَ الصّدى والأغاني
في بلاد الكهوف العريقة
كانت الأرضُ لي زوجةً وصديقةً؛
ذاكرٌ في الدروب الضريرة
شهقةً اليائسينَ ينامونَ في الفجوة الصّغيره
بين أحلامهم والرّصيف،
ذاكرٌ كيف كان الرّغيف
مُصحفاً، وسماءً كبيره.

أنقاضي!
امرأةٌ تطلعُ من أحشاء النيلوفر
تتبرّك بي
ثم تصيرُ وردةً في عُروة الشيطان
وشجرةً على ضفة الجحيم،
حاليمٌ يقرأ كتاب الشوارع راسماً وجهه بنار الإسفلت
شاعرٌ يفضح المدينة ويرقد في سراويلها
مدنٌ تنحني، أشجارٌ تتلاقى وأسميَ المكانُ والوعد
سلاماً يا أنقاضي!

أغنية:

كتبي يحرقها الطاعني هناك
هي ذرات من الغيم حزينه
فوق أشلاء المدينة
وغداً، أو بعده تنهمر -
أيها الحجاج لم تحرق سواك
إن شعري لغة الأرض هناك
وأنا الريح هنا والمطر؛ -

لكن الأرض سائبة،
والرعب آتٍ في الثوب والثور في البثور
في الماعز والحيوان التوأم المسمى رجلاً وامرأة
آتٍ في الحصاة والصبر والصباح
في الحرب وغير الحرب
في النهد والنوم
في اللبن واللّيل
في الحبر والورق في الحروف آتٍ آتٍ

في الأمة الأمة الجهاد الجنّ والجرائم آتٍ آتٍ
ميشا ماشا ميلانو سانشورا جا سان جيرمان دويري ، باري سثيا ، ا

أغنية :

أتهجّاك يا لوحَةَ الرَّعْبِ،
أقرأ صحراءك الطويلة
وغدي مائلٌ، وعلى وجنتي
بقعٌ من يدي
أتهجّاك، أوقف النَّارَ في وجهك،
أستصرخ الحروفَ البخيله
أحضنُ الفهدَ والغرابَ
أحضنُ الميئينُ
ألذين أفاقوا من العُشبِ كي يُبعثوا في التُّرابِ
نملةً أو كتابَ
أقبلُ أن أغسلَ الميئينُ
بغدي أو بأمسي
لأكونَ جديراً بنفسي :
أخطي،
وأستحدّث الأخرينُ .

- ٣ -

في الآبار المحفورة بالصوت

في الصوت

في العدد بين الرقم والرقم

في النبض بين الحاسية وأختها

بين الوريد والعنق

أسافر

في قطار النوم واليقظة،

في اختلاجه الذاهب نحو الموت آتياً من الطفولة،

في الحركة التي تتسارع بين عجالاته وترتخي وتتشنج وتهبط

وتعلو، حركة الجلد والمانريس والحدود في مملكة الجلد،

حركة الرشق والدفع والجذب، حركة الهدم والزخم والتفجر،

حركة الفقاعة والموت قبيل الموت بين الرعد والإشارة بين

الكلمة والحنجرة أسافر خارج الصبغ - الشكل ونقيضه

الضفاف المزحومة بالأصداف

خارج الصدفة

أسافر

أصعد، أتفجر

ألبس الهدير والتهديج

أتموّج بالرّعب
أتحرّر من التّوبة، العِظة، العوذة
أتحرّر من الصّبر
من دمي والتّاريخ الرّاقد فيه
أتجزّأ وأعرى وأوسوس نفسي ضدّ نفسي
أضع نفسي خارج كل شيءٍ وأقول للجنون الرّشيق أن

يسرق أهدابي كنسيمٍ غربيّ

أنقطع، أنفصل، أنقصم
أختبيء تحت شفتي

بعيداً بعيداً بعيداً

في الضوء في الظلام
في الصّمت في الدّهول
في لغةٍ تغير الكلام
في مطر يغيّر الفصول
في الظمأ الجامح والسّير بلا وصول

بعيداً بعيداً بعيداً

عن الثقيل والعائق

عمّا يحني ويربط ويحاصر

عمّا يوفق ويصالح ويعلم

عمّا يقنع ويخضع ويرضى

بعيداً بعيداً

حيث أصيرُ البرقُ والجذرُ العائمُ الجذَرُ

أسافر

هنا

حيث الجدارُ والجدارُ الكرسيّ والجدارُ التَّبغُ والجدارُ

في حوارٍ دائمٍ

حيث السّاعةُ خرطومُ والجريدةُ نَوْرَسٌ أو يمامةُ.

حيث الجسدُ بساطُ

والخبزُ ساحرٌ بآلاف الأقمعة

والجسدُ الحضورُ والمسرح

أسافر أسافر

هنا - في العشب اليابس بين العِرْقِ والعرقِ

في الكرسيّ المغطّى بالليل

في كتيبي هذه الشعوب المريضة التي تتعاقب وتنام حولي
أسافر

في الفراغ وهندسته - حيث أكتب وأقرأ: «هنا يرقد إقليدس . . .»

حيث قُبر المتنبّي في صوته

وعاش المعريّ تحت عينيه

حيث علّق الحلاج على خشبة في خريطة الروح

حيث الرّازي وجابر والسّهوردي وأصدقاؤهم يتكفّنون

بأصواتهم

ويفرعونها أكفاناً ومقابر

هنا حيث الفراغ وهندسته -

ظلّ الضوء والظلّ الصوتُ الشّراؤ

ريمان لوباتشوفسكي

سيلاه سيلاه سيلاه!

أغنية:

- رأس مهيار يعلو، كأنّ الشّجر

سُفّنٌ وضيْفانٌ

وكأنّ المطرُ

لغة تتساقط منه، كأنّ الكلامُ

أرضه والمطافُ
رأسُ مهيار يرسبُ، يطفو، يطفوُ
ثقت وجههُ الحروفُ
رأسُ مهيار يكبو ويعشق سحرَ الأقاصي
رأسُ مهيار يدمى، يجفّ، وينأى... كأنَّ الحطامَ
رأيةً للخلاص.

اكتشفتُ أنني مُقعد وليس لي قدمان
والأرضُ أمامي أضيقُ من القدمِ
سأغطيها بالمزابيل كما في سيفرِ الأمثالِ المخبوءِ في الجبالِ بين
أنداءِ العجائزِ،

لعلها تكبرُ تكبرُ تكبرُ
وأنا سأصوبُ إلى نفسي سهامَ الفضاءِ وأربط أطرافي
بشلالٍ

لا جذرَ له
أو بتيّارٍ يعبرُ كالفاجعةِ
وأهوي،
لابساً قامة البحر والشواطئ فاتناً كشلالٍ،

نحو الخفي المنكر - أخي وسيدي .

أترك هذا الصوت :
كان يستعجل النجوم ، يُلاقِيها
إلى مفرق الدروب الأمانة
مثقلاً بالحروف والجبر ، مكتوباً
على دفتر السماء الحزينه .

أترك هذه الحاشية :
قادرٌ أن أصيرَ وجهي بحيرةً للبحج وأجعل أهدابي غاباتٍ ،
وأصابعي ربيعاً وأعراساً . قادرٌ أن أبعث أليعازر في كل خطوة
أخطوها ،
لكنّ الفرح غائبٌ ولم تحن ساعة الظهور .

أيضاً ، أترك هذا الحلم :
عرس . فاوست يتزوج الضفة الشرقية من المتوسط . الضفة امرأة
تتزين بالقارات ، بالصنوبر والكرز . الصخور دافئة كالنساء ،
وديعة كالأعشاش ، والشواطىء حُبلى بشواطىء لم تجيء

بعد...
وجه السماء الآخر،
فوهة عصرٍ يقترب...

- ٤ -

أرضٌ تعرضُ نفسها عليّ؛
تنهضُ في جسدي، توميء وتحنني -
أجعلها مسطحةً ودونَ أطرافٍ كي لا يعودَ المسافر
ولا يهتدي

أُسقطُ فيها، بين لحظةٍ ولحظةٍ،
كوكباً خفيفاً كزفير بلبلٍ يموت
ثم أسمح للأحلام - غريبةً ومن كل نوعٍ - أن تسقط فيه
ترصدُ البحر العائد من هجرته
تسمع الفضاء يقول للبعج: اقبلني ضيفاً تحت ريشك،
ليلةً واحدة

وبين غفوةٍ وغفوةٍ
أهمسُ كي تغافل التاريخ،
تسلُّ إلى مغاوره وكهوفه وأقيته التي يحرسها جلاّدونٌ بعينٍ

واحدة ورؤوسٍ عديدة، والتي تزخر بالسلاسل وأخواتها من أدوات التعذيب والقتل خنقاً أو حرقاً أو مَزَقاً، أو بوسائل غير هذه يجهلها اللسان الفصيح، ثم أعطيها أن تغافل الحراس أيضاً . . .

(هيا، عجلي، ضعي اللغم . . . أشعلي الفتيل)

لكن . . .

آه أيها الفتيلُ المبللُ،

والزمنُ رَطْبُ

ولا جمرَ في الهواء!

أرضُ تعرضُ نفسها عليّ

تُوحى بالبحث عن تُرْهاتٍ تغدّي مجاعة الحيوان

مثلاً - عن برج بابليٍ من الجمال المجنحة

أو منارةٍ من أنقاض الرّاهبات

أو هَرَمٍ من البكاء والملايا

وتمنحُ لكلّ شيءٍ - حتى للقبر والشاهدة والنّعش، قناعاً من وجوه

الأطفال.

أرضُ تعرضُ نفسها عليّ

تهتفُ أن أرشَ سحري ماءً أزرقَ على غيرها من الأرض وأتركه

في سُباتٍ إلى آخر الدهر - آمين.

- والمدنيّة؟

أترك لها، استثناءً، تيوسها، وطلائعها ورضادها من جواسيس
وزعماء وغيرهم...

- وهذه الأرض؟

أعجنها كالكرة،

أقول لأعصابي أن تصير سهاماً تخترقها

ثم أنقش عليها أسماء الشهور والسلاطين وأنواع النبات والنساء،

وأرفعها على بساطٍ سحري، هديةً إلى الأمير من عامله على

مغارة الكنوز...

أرض تعرض نفسها عليّ

تنهض في جسدي، توميء وتنحني، -

طاقتي على التحوّل لا آخر لها. تعجز أن تنتهي ولا تعرف كيف

أترون هذا النسيج الأزرق

فوق

تحت القمر، وراء ظهره

تلتفت به خاصرة البحر،

ويصير تاج الأفق وكرسيّ الموج

يسمحّ للسماء أن تنسله خيطاً خيطاً لتربط أصابع النجوم كي

تتذكر النجمة أختها دون أن تنسى الأرض -

هل يُعقل أن يكون هذا النسيجُ شخصاً آخرَ غيري؟

لا أصدّق، -

اسألوا التقمّص إن كنتم في شكّ...

مرّةً، صرتُ لؤلؤةً،

تحيا مع اسمها

وحيدةً - ضمن العالم خارج العالم.

حينذاك عرفتُ كيف تعطي مجاناً كالشمس،

وحين رأيتها عاريةً تبحث عن ثوبٍ ضائعٍ ترتديه

تعلمتُ كيف تكسو عُريّ العالم.

وصحّتُ أيها الآخرون أيها الأقنعة

إنني من طينةٍ ثانية، أعيش في وحدة اللؤلؤة،

لهذا تبدون لي، أنا الميت بينكم جُثّاً،

وصحّتُ قبيل ذلك - تقدّم، تقدّم يا عصراً يكون فيه الإنسانُ

طقسَ نفسه:

السقوط والله، الأرض والجنّة، القائم والقيوم...

ومرّةً صرتُ

عاصفةً - زمزماً بالآف الثقوب يغني لنفسه بين نفسه والفضاء

وتنتحب في ثقبه روحُ الدّنيا،

كنتُ وأنا أغني

أجعل الهواء آنيةً للبخور

والغيوم أهداباً للأرض

والمطر أجراساً وخواتم.

أرضٌ تعرض نفسها عليّ، تنهض في أحشائي؛ -

أعرف الآن أن أجمعَ أشياء الأرض

أجعلها في وسادةٍ أمدها تحت خدي

أعرف الآن

أين يكون الليل إذا جاء النهار،

والنهار إذا جاء الليل،

أعرف أن جنس الربوبية يتأصل في أحشاء الأرض ويتناسل،

أعرف الأرض بالأرض

والسماء بنور الأرض.

هكذا أظهر في قميصي الجديد!

لكن،

ما هذا الخوف؟ ما جئت لألقي الخوف بل التغيير.

حتى كورنيش البحر يختبئ

ويروت كالخيط،

حتى أصدقائي صاروا كالخيط!

شجرةٌ وحيدة تعانق الجمر وهي تفتح إنجيل الفضاء فتحت

أغصانها وفيأتي

آه يا صديقتي ،
وشكراً .

- ٥ -

١ - أصوات :
الحلْمُ المكانُ ورقاصُ الوقت
يَجِيءُ
يبلغ العتبة
يدخل ويقبل الحضور
يجلس

في القلم والورق
في تفاعيل الحياة ونثرها
في الكلام والخبز .

٢ - قداس :
رجع دفتر الشمس السوداء وعادت أيامه
رجع الحبر الأبيض كالدمع
وانفتح الباب الآخر
البريء جنازة كل يوم

والبراءة الكفن .

٣ - جرس :

الضوء الضوء

والنفس الأرضي اللاجئ بين الأشجار
يتراجعُ محمولاً على الهواء
يتراجعُ ساقطاً في مداراته
يفسل أيامه

ويعتزل مع شمسه بين الرداء والجسد
تحت البشرة ما وراءها
والخبر أن شمسه حُبلى .

٤ - شجرة :

لماذا الإنسان حين لا يكون للإنسان اسم ولا هوية؟
لماذا المكان حين يكون مقلداً، مليئاً كالطبل؟

٥ - فراشة :

ستموت وتسكن مثلي في الظل تحت الفصوص

حَيْثُ لَا جَارَ إِلَّا صَدَانَا
فِي الْغُبَارِ وَفِي الْعُشْبِ حِينَ عَبَّرْنَا
مَرَّةً وَرَسْمَنَا خُطَانَا
فِي كِتَابِ السُّهُولِ
وَسَنَبَقِي هُنَا أَثْرًا لِسَوَانَا
أَثْرًا لِلتَّفْيِئِ فِي الظِّلِّ تَحْتَ الْفُصُولِ
حِينَمَا يَسْقُطُونَ وَيُغْوِيهِمْ صَدَانَا.

٦ - اصوات :

رَأْسُ مَهْيَارٍ سِحْرُ
كَأَنَّ الْمَكَانَ
طَبَقٌ تَحْتَهُ يُدَارُ
رَأْسُ مَهْيَارٍ بُرْجٌ وَقَارورَةٌ لِلدَّخَانِ
رَأْسُ مَهْيَارٍ نَجْمٌ
كَأَنَّ اللَّيَالِي
طُرُقٌ حَوْلَهُ وَنَارٌ
رَأْسُ مَهْيَارٍ يعلُو
يُضِيءُ الأَعَالِي .

٧ - أغنية:

لو دَعَوْتُ الرِّيحَ وأوهمْتُها

لو حلمتُ

أَنَّ لي عَالَمًا لا يُحدِّدُ بالأرض، بل بالرِّيحِ

أَنَّ لي رايَةً في الضِّياءِ ومملكةً في الجناحِ

لو دَعَوْتُ الرِّيحَ

وأخذت مفاتيحها واختبأتُ،

غيرَ أَنَّ الرِّيحَ

دخلت في الصَّبَاحِ

حينما لَفَنِي النِّعاسَ وعانقَتُها وحلمتُ...

(بيروت، آذار ١٩٦٢)

فهرس

الصفحة

٧	زهرة الكيمياء
١٠	الدهشة الأسيرة
١١	شجرة النهار والليل
١٢	كنيسة النهار
١٣	شجرة الشوق
١٤	الإشارة
١٥	شجرة الحنايا
١٦	شجرة النار
١٧	شجرة الصباح
١٩	غابة السحر
٢٠	شجرة الأهداب
٢٢	شجرة الكتابة
٢٣	اقليم البراعم

الصقر

- ٢٥ ١ - أيام الصقر.
- ٣٥ ٢ - تحولات الصقر.
- ٢٧ ١ - فصل الربيع.
- ٤٦ ٢ - فصل الصعود إلى أبراج الموت.
- ٥٧ ٣ - فصل الصورة القديمة.
- ٦٧ ٤ - فصل الأشجار.
- ٧٩ تحولات العاشق.
- ١١١ أقاليم النهار والليل.
- ١١٣ ١ - فصل الحجر.
- ١٣١ ٢ - فصل المواقف.